طاحونة الغبار

(رواية)

صالح أبو ناجي

E-KUTUB

طاحونة الغبار

(رواية)

صالح أبوناجي

إصدارات إي-كتب
لندن، حزيران-يونيو 2016

Dust Mill
By: Saleh AboNaji
Copyright: The Author
Published by E- Kutub.com & Google Books
ISBN: **9781780582122**
* * * * *

الطبعة الأولى، لندن، تموز-يوليو
المؤلف: صالح أبو ناجي
الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي- كتب) أو غوغل بوكس، نرجو اشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة بالكتابة الينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
saleh.abonaji@gmail.com
مصممة الغلاف: **ولاء الزيدان**
العنوان على موقع Instagram
www.instagram.com/nwalaa4

إهداء

"إلى الجزء الأشدّ خراباً في ذاكرة كلٍّ منكم
لتعلموا كم أنصفتنا الحياةُ حين ظلمتنا"

صالح أبوناجي

الفصل الأول

أسيرٌ في عينيها

1

كانت أجملَ من أن تنظر إليك؛ إلا أنها نظرتْ، وكنتَ أجْبنَ من أن تنظر إليها ولكنك نظرتَ، وقبل أن تجد لنفسك زورقاً في مَرْفأ عينيها كنت قد كسرتَ قاعدتك الأولى وأبحرت، ورأيتَها في بحرها عيناً بعين؛ فما رأيتَها إلا جميلة، وما هي إلا أن غضَّت طَرْفها؛ فكان قلبك الذي يَخفق في هذه الدنيا منذ عشرين عاماً قد بدأ يُخفق...

وأخفق الشقيّ الصغير؛ ذاك الذي قالت عنه أمّكَ بأنه سيتعلم القتال في اليوم الذي سيجد فيه شيئاً يستحق أن يقاتل من أجله، فلما وجدها لم تكن شيئاً ولكن كانت فوق كل شيء، ومعَها بدأتَ شيئاً كنتَ تعلم يقيناً أنك لن تستطيع أن تُنهيَه، إلا أنكَ بدأتَه، ربّما لأنكَ لم تعد تعرف عن نفسك إلا الأشياء التي قالتها تلك الشقيّة عنك، وضللْتَ الطريق إلى نفسك في كل مرة حاولتَ فيها أن تجد نفسك، حتى إذا لم تعد تعرف من أنت عرّفتَ نفسك بها؛ بالألم الذي يتغشّاكَ كلما صدّت بوجهها عنك، تماماً كما يعرِّف القتيلُ قاتله...

وهي.. جمالٌ يتّكئ على جمال، لا تجد منها اثنين إلا إذا كان الثاني هو القمر، بَضّة؛ ينافس أعلاها فيها أسفلها، هي أيلولُ إذا أراد أيلولُ أن يكون امرأة، هي العيد إذا جاء العيد في كل يومٍ من أيام السنة، هي في هذه الدنيا قوةٌ قاهرة لا تملك معها أن تأخذ أو تدع...

كالقمر تبدو، إلا أن للقمر جانباً يكسوه الظلام، غضبى على نفسها من أجل نفسها، تمنحك الامتناع ولكن بنصف قبول، تعطيكَ بعضاً من نظرة وتطلب منك أن تعطيَها كل نظرة..

وقبل أن تتعلم درسك الأقسى في الحياة تعلمتَ فيها درسك الأجمل: أن تكون ناجحاً في كل شيءٍ وتختارَ أن تفشلَ في واحدة، وعرفت معنى أن يكون لك في الانتصار هزيمة، حتى إذا هزمَتكَ انتزعتكَ منك، فبقيتَ أنت بلا أنت، خيالاً مبتسماً على خيبته..

أما درسك الأقسى فقد كان أنّ البيوت إنما تُؤتى من أبوابها، وأن العهود التي تختزلها الكلمات ربّما تخونها المعاني، وربما لن تسيرا معاً من زهرة العمر إلى خريفه، وعندما تسقط عنكما ورقة التوت الأخيرة ستتعلمان أن الخطوط المتوازية ليس لها أن تتقاطع ولو أردْتما لها ذلك.. لقد كنتَ ترى، وكانت ترى، والله من قبلكما كان يرى...

وأنتِ.. يوماً ما سيتَّضح كل شيءٍ في عقلكِ؛ ستجتمع الأشلاء الجريحة لتشكل حقيقة كانت مبهمة، لعلكِ حينها ستدركين خراباً في ذاكرته كما شاء الهوى لذاكرته أن تكون..

يومها ستقرئين في صمتي أشياءَ لن يقرأها أحدٌ سواكِ، في ذلك اليوم ستعلمين أن لكلٍ منا فكرته عمّا يريد، وإن كان ما أريده أن تبقَي بعيدة...

"أن تبقَي بعيدة"

وعلى خاصرة هذه الكلمات تضع الحرب أوزارها، لتبقى أسيراً في عينيها، فلمّا ردَدْتَ عينك عنها ما ارتدّت إلا إليها، وكم حاولتَ أن تفرَّ منها فما فررتَ إلا إليها، كانت منفاكَ في وطنك، ووطناً لك في كل منفى...

2

كانت تعلم يقيناً أنك ستحتفظ لأجلها بنظرةٍ أخيرة، فقد كانت على مَرّ الأيام لِصّةَ قلوبٍ ماهرة، وما تعلمتْ من كونها جميلةً إلا أن الجميلات يحصلْنَ على ما يُرِدْنَ ولو بعد حين، ولم تخذلها فتنتها لعشرين عاماً هي فترة وجودها في هذه الحياة، ثم ظهرتَ أنتَ في حياتها لتقول لها: ابقَي بعيدة!

وبمثل هذه الكلمة تغيّرَ قانون اللعبة، والحرب التي كادت أن تضع أوزارها عنك لم تضعْها إلا عليك، وابتدأتْ الشقيّةُ نوعاً جديداً من العذاب معك، كان للدهر فيه يومان؛ يومٌ عليك، ويومٌ لك مع أنه لم يكن أبداً إلا عليك، وما تعلمتَ من إبحارك في عينيها إلا أنّ أكثر شيءٍ تُتقنه هو الغرق..

كل هذا بدأ عندما سدّدتْ أشدَّ نظَراتها جرأةً باتجاهك، وانطلقت تسابق خطاها نحوك.. لم تُلْقِ بالاً لأيٍ من صديقاتها أو أصدقائك، ثم لمّا وقفت أمامك سحبت من بين يديك كتابك، ودسّت في أعماقه رسالة ما، ثم انسلّت مبتعدة...

كتبت:

"أتريد مني أن أبقى بعيدة؟ وكأني سأسمح لشيءٍ من هذا أن يحدث، تأمل ما سأقوله لك جيداً: ستنظر إليّ حتى ولو أغمضتَ عينك، وسوف تراني هناك عندما لا أكون هناك، في كل شبرٍ وفي كل ناحية، حاضرةً وإن كنتُ عنكَ غائبة، وما اختلفنا في الدروب إلا لتعلم أن دروبنا على اختلافها واحدة، وسأستمرُّ بالظهور في طريقك كأنني قدَرٌ قد كتبه الله عليك، وأتمنّى.. أتمنّى أن تندم لبقية حياتك إذا لم تجعلني زوجةً لك..."

إذا لم يخرج الحب منك أسوأ ما فيك فأنت لم تحبّ حقاً، وما أخرج لي منها إلا ذلك الجزء الذي تصبح فيه هذه الأنثى متسلّطة، تريدُ أنت أن تتحرّر من أسرها وتريد هي أن تُوقعك فيه، وكأنها قرأت في ما كتبتَه لها شيئاً آخرَ لم تكتبه، وكأن الحروف التي لطالما وقفت إلى جانبك غادرتكَ لتكتب معها تلك الرسالة، عندما تتحالف الأبجدية مع فتاةٍ ضدك تكون الهزيمة أفضل ما يمكن للحرب أن تقدّمه لك، وما دون الهزيمةِ أفكارٌ مجنونة يختلِقها الجمال في سبيل أن يتمّ الاعتراف به...

وأصبح الحديث - الذي كان سراً بين عينيها وعينيك - مَشاعاً على كلّ لسان، الجميع رأى الغضب في عينيها وكيف تورَّدت وجنتاها على صفحات دفترك، كلهم نظروا إليكَ وأنت تستقبل رسالتها كأنك تستلم من يديها قدَرك، واستنتج الأوغاد أن قصةً قد بدأت بينكما دون أن يلاحظ أحدهم شيئاً، وأن لقصتكما هذه بقيةً لم تُكتب بعد، سيحرص كلٌ منهم أن يتابعها إلى حيث تُوضع في الحكاية النقطة...

وكأن السلام الذي يمرُّ بين حربين لا يمكن أن يكون أرحم منهما، فبعد كل شيءٍ ماذا تعني الحياة إذا جاءت بين موتَين؟

لقد تمكّنت منكَ كما لم يفعلْ أحدٌ من قبل، ولم يزدها رفضكَ إياها إلا تمسُّكاً بك، كان في رسالتها تلكَ كلماتٌ فوق الكلام، وفيها ممّا ليس فيها خيالاتٌ استوطنت مدينةً كانت مهجورةً في القلب، فكانت لها مرّةً وإلى الأبد...

الجزءُ المحذوفُ من كلّ ما أكتبه إليها؛ تقرأه دونَ أن أكتبه.. الجزءُ الموجودُ في كلّ ما لم أكتبه بعد؛ تقرأه قبل أن أكتبه، جزءُ الشتاء الذي يبكي ليصنعَ المطر، جزءُ السماء الذي يختفي ليُجلّيَ القمر، الجزءُ الذي هو منك لا يكون إلا بها، الجزءُ الذي هو منها لا يكون إلا بك، الأجزاءُ التي هي منكما لا تكون إلا بكما، الجزء الذي ينقص كل ما هو جميلٌ ليكون أجمل، هذا هو الحب...

3

إذا أردتَ أن تكون لها شيئاً مميزاً فإن أفضل ما يمكن أن تُقدّمه إليها هو أن تكون لها وحدَها، وحدَها فقط.. وإن أفضل طريقةٍ لفعل ذلك هي أن تفعله بأي طريقة؛ ما دُمْتَ تفعله من أجلها فإن كل طريقةٍ هي الأفضل، ولا يزال لك في رضاها غايةٌ ما دام لها في رضاك غاية، إلى أن تتحد الأماني في عهدٍ مقدّس يجعل ما كان في الماضي يكون في اليوم، ومن بعده في كل يوم، لتسير به الأمور كما أراد لها الله أن تكون..

وبين ألّا تعرف قيمة هذا الحب وأن تظنّ أنه حبٌ بلا قيمة - أسئلةٌ كثيرةٌ تطرحها عليك الشقيةُ في كلّ ليلةٍ، تظهر فجأةً في

رأسك، تقريباً عند منتصف الليل، لم يحدث أبداً أن تأخرت عن موعدها هذا.. ثم تمسك مِكنسة الخيال وتزيل غبار النوم عن سطح العصب البصَريّ، ثم تجلس في محجر العين وتردّد جملةً من رسالتها: "ستنظر إليَّ حتى ولو أغمضتَ عينك.." ثم تعيد يومها كاملاً في رأسك؛ منذ أن رفعت رأسها عن الوسادة إلى أن أعادته إليها، كل شيء..

ويحدث أحياناً أن تراها عندما لا تظهر، أن تسمعها حين لا تتكلم، كلما تجاوزتَها لتبحث عن الآخرين وجدتَها وأضعتَ الآخرين، ومن ورائهم أضعتَ نفسك، كنتَ أنتَ من صنع قيدك وتركتها تبعثرك، حتى وأنت تكتبُ هذه الكلمات تقِفُ على حدود التداعي، ما الذي أبقْته منك لك؟

الفتيات.. كائناتٌ رقيقةٌ إجمالاً؛ غريبةٌ تفصيلاً؛ صعبةُ الفهم، معقدةٌ ببساطة، أو ببساطةٍ: معقدة.. ما تفعله بك لا يمكن أن يؤدّي إلى ما تريده منك، إطلاقاً..

في إعراضها عنك التفاتةٌ إليك، وفي صمتها معك سبعون كلمةً كادت أن تقولها لك قبل أن تئِدها على أعتاب شفَتيها، تريد أن تقول لك شيئاً ما بشدّةٍ ولكن تنتظر منك أنت أن تبتدئ، فالموضوع بالنسبة لها اختبارٌ تراهن فيه على جمالها وقدرتها كأنثى على إضعافك واستِمالتك رغماً عنك إلى جناحها، فأنّا ابتدأتَ الكلام معها فكن على ثقةٍ بأنها لن تصمتَ بعد ذلك، أبداً...

وبينما تظنّ أنتَ أن لك الحرية في أن تكون ما تشاء؛ تظنّ هي أن لديها الحرية في أن تحوّلك إلى ما تشاء، أن تغيّر فيك أشياءَ كثيرةً باسم الحب.

وباسم الحب ستنسلُّ إلى جزئياتك الصغيرة، إلى عاداتك اليومية، إلى أوقاتك الفارغة، ستعطيكَ رأيَها دون أن تطلبه، وتطلب رأيك في أشياءَ لا تفقه فيها شيئاً، عندها ستفعل كل ما كنتَ تفعله قبلها ولكن باعتبار رضاها أولويةً قد تقدمها أحياناً على رضاك، ربما دائماً! فبعد كل شيءٍ يبحث الرجل منا عمّا يريح رأسه.

هناك أشياءُ إن لم تأتِ في لحظتها الفاصلة فخيرٌ لها ألّا تأتي. لا شيء يؤلم مثل جرحٍ في الكبرياء من حب قد عفا عليه الزمن، تلك العلاقة أحاديةُ الجانب، كفكرةٍ خائبةٍ لغيمةٍ في علاقة حبٍّ مائية؛ أسقطت ماءَها نحو الأرض وتوقفت تنتظر من الأرض أن تمطر نحو السماء.

وبعد ليلةٍ كادت ألّا تنتهي تتركك الشقيةُ على أعتاب الصباح؛ تائهاً بين ما تريده وبين ما يجب عليك أن تفعلَه، تلك الحيرة القاتلة التي تجعلك لا تدري أتدعو لها أم تدعو عليها..

وقفتَ في ذاك الصباح ترتب فوضى العبارات وبقايا الأفكار الناعسة، كانت فكرتُكَ التي لازمتكَ عشرينَ عاماً تَمْثُل أمامك كطرفٍ ثالثٍ في هذا النزاع اللامتناهي.. ما الذي تريده؟ ما الذي يجب عليك أن تفعله؟

إذا تعارض هذان الشيئان فأنت أشقى أهل الأرض، أنت النبيُّ الذي نصره كل أهل الأرض وخذله قومه.

على الحافّة الفاصلة بين وهمٍ وحقيقة؛ بين وعيٍ وجنون تختفي الفتنةُ منها لتظهر فيها الفكرةُ التي صاحبت آدمَ وهو يغادر جنّته لأولِ مرة؛ مباشرةً قبل أن يُدرك أنها المرّة الوحيدة، تلك الفكرةُ التي جعلته يبحث عنها أولَ ما نُفيَ إلى الأرض، لقد كان يبحث

عن منفاه في منفاه، عسى ألّا يخذلَه المعنى في شيءٍ كان معه في الجنة ونزل معه إلى حيث لم يعد هناك جنة، لتكون جزءَ الجنة المفقود في لعنة الأرض السحيقة..

لحكمةٍ ما كان على الأوراق أن تتابع سقوطها في كل عام، لا يعرف العشاق أجملَ من فصول السقوط؛ عندما تفقد الأشياء سيطرتها على الأشياء، فوضى تعمُّ المكان، كل شيء يسقط من حولهم أو ربما من أجلهم، يملك هؤلاء سيطرةً غريبةً على منافذ الوقت؛ بإمكانهم أن يعطلوا عقرب الساعة لِلَحظة، أو أن يعيشوا لحظتهم أياماً عديدةً في كل يوم..

وعلى حين حبٍّ حاولتُ أن أضع شمس خدَّيها في قنديلٍ وأطفئَها؛ حاولتُ أن أخزّن بحر عينيها في زجاجة وأدفنَها، عبثاً حاولتُ أن أخرجها من رأسي حتى هممتُ أن أخرجَ وأترك رأسي لها، كانت أجملَ من أن تكون حكايةً آثمة، علمتُ حينها أن الحبَّ الذي ظننتُه لن يستمر هو ذاته الحبُّ الذي تيقنتُ أنه لن ينتهي، وأنني مهما حاولتُ أن أطيعَ الله فيها فلن أستطيع أن أطيعَه بمعصيته...

تأملتها مرة أخرى قبل أن أكسرَ حياد الكلمات على السطور، لا تزال كما كانت؛ تختفي الفتنةُ منها لتظهرَ فيها من جديد..

عندها ورغماً عني، كتبت:...

4

"كان أيلول من أحضرني إلى الدنيا في إحدى لياليه الباردة ليجمعني بأعظم امرأة عرفتها؛ أمي.. ليعود بعدها بعشرين عاماً

ويجمعني بكِ، غريبَين ذاتَ خريفٍ وقفنا في ذلك المكان الذي يجمع الكثيرين عادةً لكنه كان خالياً يومَها إلا من متناقضَين؛ أنتِ وأنا.. لنتعلم درسنا الأول في مكانٍ فارقناه وما استطعنا أن نفترق فيه..

حدث هذا قبل ثلاث سنوات عندما رأيتكِ للمرة الأولى، يومَها قررتُ أن أكرهك..

حقيقةً؛ حتى قبل أن تلتقي أعيننا لأول مرةٍ كنت أكرهك، لقد كنتِ الأسوأ بين طالبات السنوات العليا، وكنتُ أنا فارغَ اليدين إلا من ثقة؛ رجلاً لم يعرف في أعوامه القليلةِ غير الكتاب صديقاً، ولا أدري من الذي أوحى إليكِ بأنك ملكةٌ على سكان تلك الناحية من الأرض، إلا أنك أتقنت دورك أيّما إتقان؛ تتحكمين في الطلابِ وتسيطرين على موظفي الجامعة، كأنكِ ما ولدتِ إلا لتكوني رئيسةً لاتحاد الطلبة..

وكما يلتقي النقيضان عادةً وقع الصدام، كان من المنطقيّ أن يحطّم أحدنا الآخر؛ إلا أنني ابتعدت، ربما لأجل نصيحة قالها لي أبي يوماً: "إياكَ أن تشتبك مع امرأة"، وربما لأني قرأتُ فيكِ خسارةً محتملة؛ كارثةً لم أكن مستعداً لها، ولكنّ الحقيقةَ أنني أردتُ أن أراكِ تُحطّمين نفسك، لقد كنتِ تحاولين أن تفرضي جبروتك على شخصٍ لا يُحكّم في الأمور إلا رأسه، رجلٌ يظنّ أن فكرَته كرامتُه، لقد اخترتني عدواً لكِ، فاخترتك أنا عدواً لا يستحق أن تقاتله، عدواً تراقبه وهو يقاتل نفسه!

وبدأت معركةُ التجاهل، كِلانا يستكثر على الآخر نظرة، وكِلانا لا يفوّتُ فرصةً يثبت فيها للآخر بطشه، وربما تظنين أنني كنت أتظاهر بتجاهلك، ولكني لم أتظاهر يوماً بشيء؛ لقد كنت

حقاً أتجاهلك، لم تكوني تعنيني في شيء، لم يكن أمراً صعباً أيضاً، أمور كهذه تبدو سهلةً إذا ما انبثقت عن قناعة؛ وقناعتي أنكِ لا تستوقفين النظر، ليس وفي وجهك قد أضاع رسّامٌ فرشاته، وفي لباسك خلّد فنانٌ إبداعه، ووشاحك الذي ضلَّ طريقه في عُتمة شعرك الأسود فتوقف تائهاً في منتصف رأسك..

وعادت الحربُ لتبعثرَ مفردات الحياة من جديد، وبدأ فصلٌ جديدٌ من الثورة قاتل الثوارُ فيه بعضهم في سبيل السُلطة، واستنزف المسلمون - وهم مسلمون - فيه آخر ما تبقى من حياء، فاستباحوا دماء بعضهم وانتهكوا الأعراض وسلبوا من الدولة ما كان يبقيها دولة، وبدأنا عامَنا الثاني في الجامعة وأولئك يبحثون عن غريمهمُ الضائع؛ وهؤلاء يبحثون عن غريمهمُ الضائع، والوطن ضائعٌ بينهما..

وحدث في العام الثاني ما لم يكن متوقعاً؛ لقد انضمّت فتاة الاتحاد إلى دفعتنا، ذلك أن الحرب اضطرتها إلى أن توقفَ دراستها بعد أن سقطت مدينتها من الخريطة، لتصبح أثراً بعد عين..

أتذكر تماماً أول مرةٍ وقعت عيني عليكِ فيها بعد تلك الحرب، لحظتَها أضعتُ في وجهكِ معانيَ كنتُ قد اعتدتُ عليها، لم يكن التحدي بل الانكسار، وضاع النصر في أعقاب الهزيمة، وقرأتُ فيه معانيَ لا حصرَ لها عن الخوف واليأس والرجاء، لقد قتلت فيكِ تلك الحرب أشياءَ كثيرةً، ولا أدري كم بقيتُ أقرؤك قبل أن تسبقني قدمايَ لأعزيَك في مدينةٍ منكوبةٍ ووطنٍ ضائع، كانت تلك أول مرةٍ أقف فيها على فتاةٍ في الجامعة، مع أننا كنّا خصمين؛ إلا أنّ الألم يتضاءل إذا تقاسمته مع عدوّك..

وتكفّل الزمان بإحياء بسمتكِ الذابلة، لأراها تنمو يوماً بعد يومٍ حتى أشرقت في وجهي ذاتَ صباحٍ عند بوابة المكتبة، ولا أخفيكِ أنني ارتبكتُ قليلاً؛ من المزعج أن يبتسم في وجهك عدوّك، وخجلتُ أيضاً؛ من الغريب أن تبتسم في وجهك فتاة، وتلا بسمتكِ تلك شيء لم أتوقع أن أراه منك؛ كنتِ تُطأطئين رأسك في خجلٍ وتنسلين مبتعدة، كأنك لم تتعمدي البسمةَ لكنها خرجت رغماً عنك، "ما هذا.. يمكنها أن تخجل إذاً!" كان هذا أول ما خطر ببالي، ولم أفهم ما حدث تماماً حتى سمعتكِ صدفةً تقتبسين مما أكتبُه..

هكذا إذاً؛ لقد كنتِ تقرئين لي، أعجبتني الفكرة بدايةً ثم أزعجتني آنفاً قبل أن أفكر أخيراً في استغلالها، ماذا لو طرحتُ ما أكرهه فيكِ في مقالة؟ ماذا لو كتبتكِ في نصٍ أدبي؟ التحقتُ بمجلّة الجامعة التي تحرّرينها وتكتبين فيها أيضاً، وراقتني الفكرة جداً إذ لم يكن لديّ شيءٌ لأخسره، وما زادني حماساً أن رمضانَ قد حطّ رحاله، شهرٌ كاملٌ لأختبر فيه قدرة كلماتي على التغيير...

ثلاثون يوماً من السجال بالكلمات، أكتبُ وتكتبين، وأعلم أنك تقصدينني تماماً كما أقصدك، كتابةٌ على الملأ لا يفهم ما ضُمّنت كلماتها إلاكِ، ولا يبصر ما وراء كلماتكِ إلّاي، وقبل وعينا بأن الشهر حقاً قد أتى كان يلملم بقاياه ليرحل، وما ادّخرتُ فيه من حرفٍ إلا وكتبته؛ من أدب الدعوة إلى الأدب الساخر، وما بينهما من كل أشكال الأدب..

وعدنا إلى الجامعة كأننا لم نعد أبداً، وعدتِ أنتِ إليها كما لم تعودي من قبل؛ فتاةً ولكن فوقَ النساء، وكأن ما قتلته فيك الحرب قد عاد إلى الحياة من جديد، يومها اكتشفت أن لديكِ قلباً، ليس هذا

فحسب؛ بل وأنك تُتقنين استخدامه! في ذلك اليوم ولأول مرةٍ في حياتي كنتُ أحترم جبروتك وأتقبّل تسلّطك لأنه يفرض نفسَه بك دون أن تفرضيه، رأيتكِ وقتها كما اعتدتِ رؤية نفسك: ملكة..

كم كنتُ سعيداً يومَها، تمنّيتُ حقاً أن أكون أنا السبب.. كان لا بدّ لنا أن نلتقي بعد كل هذا كي أقول لكِ ما لا أريد لغيرك أن يسمعَه، كلماتٌ لك وحدك، لا أدري لماذا حاولتُ أن أفرَّ منكِ، لستُ بارعاً في المواجهة، لهذا أختبئ كما أنا الآن خلفَ ما أكتبُه؛ أحمّل أحرفي ما يُثقل صدري أن يحمله، لا أعلم لماذا - وأنا الذي يقرؤك كما يقرأ ما تخفيه كلماتك - لم أقرأ في صمتك ما كتبتِه في رسالتك..

بعد كل هذا بقيتُ أكرهكِ لسببٍ ما، ربما لأنك تجعلينني أبدو ضعيفاً، فقد أصبحتُ أستحيي منكِ أو مما يستيقظ في داخلي نحوك، كم هو مؤلمٌ أن تمثّلي عجزَ إنسان ما، وأشدّ من ذلك عذاباً أن يحبّ ذلك الإنسان عجزَه..

وعاد أيلولُ مرةً أخرى كما اعتاد أن يعود دائماً؛ يحمل لي ما لم يحمله أبداً، يحمل هذه الرسالة، ومعاً عبرنا ممراً في الغربة إليكِ لأضعَ بين يديكِ ما تقرئين.."

بنفس الطريقة البغيضة التي أعطتني بها رسالتها قبل أيامٍ سلّمتها قدَرها وما رأيتُ لها قدراً آخر غيره، واختفيت.. كنت أنوي الهروب قبل أن تعيدني فكرتي القديمة: كن رجلاً حتى النهاية...

بحثتُ عنها، وجدتها في المكتبة جالسةً على الأرض، أماكن مثل المكتبات تكون فارغةً في العادة، وما أن رأتني حتى دفنت وجهَها في الرسالة، أمعنتُ النظر للحظة؛ لقد كانت تبكي...

لم أفهم يوماً سرَّ ارتباط البكاء بالفرحة، ولا أدري لماذا افترضتُ لحظتَها أن فرحةً تختبئ خلف العينين البكّاءتَين.. أظنّني اخترتُ أن أؤمن بذلك دون أفسّره، لماذا نجمعُ بين متناقضَين لنخرج شعوراً هجيناً بين السعادة والحزن في حين أننا نحاول التعبير عن السعادة وحدها؟ ألأنّ السعادة التي تمنحها الحياة تأتي منقوصةً؟ أم هذا ما نريد أن نؤمن به كي نخفّف لوعة فقدانها وكأننا نعرفُ مسبقاً أن هذا الشعور طارئٌ إلى زوال؟ هل اعتدنا الحزنَ حتى صار عادةً لنا؟ هل عرفنا الحياة جيّداً حتى قبلْنا منها بأشباه الأشياء لا بذواتها؟ هل كانت الحياة تستكثرُ علينا السعادةَ أم أننا استكثرناها على أنفسنا فجعلنا معها شيئاً من الحزن؟

ومعها لم أفهم كيف يدخل العناد بين الحزن والفرحة ليركّب معهما شعوراً مُربِكاً؛ شعوراً تحبُّه ولا تتوقّعه، أردتُ أن أنسحب حقاً، قلت: "لقد حدثت والدي عنكِ".

لم يحدث شيء، أضفتُ دون تفكير: "يوماً ما ستودّ صغيرتي لو تقرأ رسالة والدها لأمها "أيضاً لم يحدث شيء، أدركتُ لحظتَها وأنا أكرر جملتي الأخيرة في رأسي كم أنها جملةٌ خرقاء، من أي أجزاء اللغة ركّبتُها؟! وتخلّت شجاعتي عني وانعقدَ من بعدها لساني، وتخشّبت قدمايَ حتى لكأنَّ جذوراً لهما قد شقّت طريقَها في أرض المكتبة..

هممتُ أن أبتعد قبل أن تُتَمْتم الملكة: "وأنا أيضاً أكرهك..."

ونزعت الرسالة عن وجهها لترى في عينيَّ ما كانت تخفيه في الرسالة؛ عبرةً تأبى النزولَ ولرؤيتها تبكي قد نزلت..

ومرّت لحظاتٌ فارغةٌ إلا من صوتِ شهيقها ودقّات قلبي، أرسلتُ عينيَّ فيها إلى رفوف المكتبة وكأن كتاباً ما سيخبرني بما

يجب عليَّ أن أقولَه الآن، تجاوزتُ ببصري المكتبةَ إلى أمينتها الجالسة خارجاً، كانت تنظر من بعيدٍ إليّ، لا شكَّ بأنها ظنّت أن أمراً ما يحدث داخلاً، يبدو الأمر من زاويتها وكأنني أتحدث مع الأرض، ولّيتُها ظهري إلى الفتاة المرتبكة الجالسة أرضاً، حاولت أن أكسرَ ثقلَ الموقف؛ لأول مرّة في حياتي حاولتُ أن أُخفّفَ وطأةَ كلماتي.. سألتُها بسذاجة:

إذا حدث يوماً وأردت أن أضَعَكِ في رواية؛ بأيّ اسمٍ أكتبك؟

ورأيتُ لحظتَها قَدَراً يحاول أن يتفلّتَ من شفتيها عندما قالت كما شاء الهوى لكلماتها أن تكون: سراب..

ثم أضافت بخبثٍ وكأنها نسيت أنها كانت تبكي منذُ لحظة: فتاةٌ لا تستطيع أن تكتبها يا حبيـ...

وقبل أن تكملَ كلمتَها الأخيرة عاد الأحمرُ ليغزوَ وجنتيها من جديد، وفي ذات الرسالة دفنت وجهَها وكأنها تريد أن تتخلّص منه، وتناثرت قطعُ الكلام فما بقي منه من همسٍ إلا واغتاله الصمت..

كانت الأبجديةُ على شفا أن تنهار إلا من ثلاثة أحرفٍ عندما انسحبتُ منتشياً بنصف كلمة تاركاً بقيّتَها أسيرةً في شفتيها إلى اليوم الذي سأطرق فيه باب والدها...

5

وثلاثةٌ مرَرْنَ منذ التقيتُها في المكتبة، لم تقتربْ فيهنّ قدمايَ من بوابة الجامعة، كنتُ مشغولاً بالتفكير فيما فعلتُه والصراع في داخلي قد بلغ أوجه: إذا كنتَ تحبُّها حقاً - وأنت متأكدٌ من هذا

الآن - فلماذا انتظرتَ كل هذا الوقت؟ ما جدوى الرسائلِ، والنظراتُ تشرح كل شيءٍ وتفضحه؟ لقد أدركتَ بعد أن حاولتَ أن تتخلصَ منها كم كنتَ بحاجةٍ إليها، لقد كانت تراهنُ عليك كما لم تُراهن يوماً على نفسك، لماذا لم تكن مباشراً وذهبتَ إلى والدها؟ أما قالت لك رسائلها وعيناها وعنادها أن الطريقَ إليها يمرُّ بوالدها؟ أتسمّي نفسك رجلاً وأنت تلهو كصبيٍّ في الخامسة؟ أكنتَ لترضى بمثل هذا لامرأةٍ تخصّك؟ أكان ما فعلتَه حراماً؟ لا يمكن أن يكون حلالاً بالطبع، ما الذي ..

وفي اليوم الرابع بلغ التفكيرُ بها حدّاً لا يُطاق، عزمتُ أن أُنهي كل شيءٍ وأطلب منها رقم والدها، تحتّم عليَّ أولاً أن أضع كل ما حدث عن كاهلي ولا أفكّر فيه أكثر، وعقدتُ نيّتي ألا أفعلَ إلا الصوابَ تالياً، وأن أكفَّ عن التلاعبِ بالكلمات لأنْ لا أفقد السيطرةَ على لساني وأتفوّه بما لا يحِقُّ لي بعدُ أن أقوله..

ثم إنني استخرتُ الله فيها وانطلقتُ إلى الجامعة..

كان عليّ أن أُجدد قيدَ الجامعة الخاصَّ بي قبلَ نهاية موعد التسجيل، فتوجّهتُ إلى مكتب مسجّل الكلية مباشرةً، وربما كانت تلك لحظةَ راحةٍ وتردّد؛ هناك أمورٌ يلزمُها مع العزيمة شيءٌ من اللامبالاة، وهذا ما لم أمتلكْه حينها، ولستُ أدري كيف ضاعت عزيمتي فجأةً لما وجدتُها في مكتب المسجّل، لقد كانت تجلس مكانه، لم أكن مستعداً للقاءٍ مباغتٍ كهذا، وما أن رأتني حتى أمطرتني بنظراتٍ معاتبةٍ فيها صبرُ ثلاثة أيامٍ وشوقُ مئة، واتخذ الإرهاق البادي في نظراتها طريقة العقاب في حل الأزمة، كانت بما لا يقبل الشك تريد أن تضرب، حتى أنها كانت تشدُّ بكلِّ ما لديها من غيظٍ على القلمِ الذي في يدها، أشفقتُ على ذلك القلم كما

لو أنه امتدادٌ ليَدي، كنّا قد اعتدنا قراءةَ بعضنا دون كلام، وكان لقاؤنا في المكتبة قبل أيامٍ أوّل حديثٍ صريحٍ بيننا خارج نطاقِ التضمين في الورق، قلتُ بتوجّس:

- أريد المسجّل لو سمحتِ..

وعرفتُ مباشرةً من ردّة فعلها كم كان سؤالي فكرةً سيئة، أتظهر بعد ثلاثة أيام لتسأل عن المسجّل؟! أردتُ أن أتدارك ما قلتُه ولكنّه بالفعل قد أخذ مفعوله.

- ليس هنا، توفيت والدتُه وهو الآن في إجازةٍ، لم يحضر منذ ثلاثة أيام..

وكرّرتْ:

- لم يحضر منذ ثلاثة أيامٍ أيضاً هو الآخر

-...

- أنا هنا لأملأ مكانه، بماذا يمكنني أن أساعدك؟

- أُريد أن أجدّد قيديَ الجامعيّ

- أبطاقتك معك؟

- تفضلي..

وأمسكتها وكأنها قبضت عليها لتجعلها تشارك القلم الذي في يدها مِحنته، فتحت البطاقة وقرأت:

"أيلول 1994"

- يبدو أنك على قيد الحياة منذ فترةٍ طويلة، يجدر بك أن تُجرِّب الموت قليلاً..

ثم رفعت ختم الجامعة عالياً وحدّقت فيَّ بتحدٍّ قبل أن تختمني في الوجه..

شعرتُ للحظتها بمشاعرَ مختلطة كانت الرهبة أكثرها تجلّياً، أين اختفى الكائن الباكي المطّرح بأرض المكتبة؟! شعرتُ بالأسى على صورتي التي ختمتها المتسلّطة، أردتُ أن أردّ لها الصاعَ صاعين ولكني كنتُ غارقاً بالخجل حتى أذنَيّ..

مدّت إليَّ البطاقة وقد افترّت شفَتاها عن ابتسامةٍ بغيضة: تفضّل..

واستلمتُ وجهيَ المختوم، أخذتُ أُقلّب النظر فيه وكأنه يقول لي: تباً لها؛ إنها تستمتع بارتباكك في بلاطها، افعل شيئاً، لقد ختمتكَ أيها الأبله..

استجمعتُ كامل عزيمتي أو ما تبقى منها: دكتورة؛ أريد رقم والدك.. قلتُها وكأني أريد أن أشكوَها إليه لا أن أتقدّم لخطبتها منه..

واختفت الابتسامة ليسكن مكانها وجهٌ فارغٌ من الملامح راح يحمرُّ تدريجياً حتى امتقع بالحُمْرة عن آخره، وطأطأت رأسها للحظاتٍ ظننتُ أنها إلى غير انتهاء، وأحسستُ بالخجل يغادرني ليغزوَها، واستيقظت حالةٌ من الغيظ لديها بينما كانت شماتةٌ لذيذةٌ تتصاعد وتيرتها في وجهي الإنساني والمختوم على حدٍّ سواء.

أعطتني ظهرها متظاهرةَ بالبحث عن شيءٍ ما في محاولةٍ فاشلةٍ لإخفاء ارتباكها، فما كان مني إلا أن مددتُ بطاقتي إليها

- بإمكانك أن تكتبي عليها

- حسـ.. حسناً

- بعيداً عن الوجه؛ دكتورة..

- أنا لم أكن.. قبل قليل.. لم أقصد

وبدأت تكتب ويداها ترتجفان، ثم أعادتها إليَّ دون أن ترفع عينيها عن مستوى الأرض إلا بما يكفي لتعرف أين يدي، شعرتُ بنفسي أقتاتُ ضعفها، لم يكن الأمر شاعرياً بقدر ما كان غريزياً، الضعفُ الذي يحتاج القوة، القوة التي يستعبدها الضعف، كلاهما قد يكون أكثر استقراراً بدون الآخر، ولكنّ الضعيف فيها يطلب القويَّ فيك، والقويُّ فيك يقوى بالضعيف فيها ويحسُّ بسطوته أمامه، وتتّضح دروب الوصل بينكما في حلالٍ وتتوارى في حرام، ولا يظهر هذا الأخير جليّاً أبداً إلا بعد أن يفعل فعلته، وأنت من يختار..

انحلّت عقد لساني دفعةً واحدة بالكلمة التي لم تفارقني لحظةً منذ ثلاثة أيام، أردتُ تجريبها بشدّة:

- سراب..

وعلَتْ مُحيّاها إذ ذاك دهشةٌ غريبة، نظرت إليَّ لا بوجهها بل بكلِّها محاوِلةً استدراك الاسم الذي التصق بها منذ لحظة، وفي لحظةِ ارتباكٍ زمنيّ تقاطعت نظراتُنا قبل أن تنكسر، كنتُ أنا أول من ردَّ بصره، شعرتُ بوجهها يشعُّ نحوي وكأن نجمين غادرا مدارهما وسكنا في وُجنتيها، كانت نظراتٍ مليئةً بالشغف، المكتب الذي يفصل بيننا لم يعد موجوداً بعد الآن، أو أن وجوده - ككل الأشياء في تلك اللحظة - عبثيٌّ يمكن إهماله في جلال ما نحن فيه، لم ينظر إليَّ أحدٌ بتلك الطريقة من قبل، كأنها تنظر من خلالك إلى أعمق نقطةٍ فيك، وأنك تشيح بوجهك عنها لتتدارك الجزء المخترَق منك قبل أن تسلبك إياه وتتملّكه، لا يزال القويُّ فيك يرفض طوفان الحب ويريد مع ذلك أن يغرق فيه، صاح فيك أنْ تدارك نفسك وانسحب، قشعريرةٌ باردةٌ تسري في جسدك

الملتهب، نظرةٌ أخيرة غير واضحةٍ تماماً، الخجلُ الذي غادرك قبل قليلٍ ليغزوَها هو الآن يدكُّ حصونكما معاً، تُلقي عليها كلماتٍ تُشبه السلام، تردُّ عليك بكلماتٍ تشبه كلماتك، تبتسمان وسطَ هذه الفوضى دون أن تفهما كيف يتسلّلُ السكون في الاضطراب، ربما بنفس الطريقة التي نخلط بها الحزنَ بالفرح،

تسير مبتعداً؛ منتشياً..

تتركها وحيدةً؛ منتشيةً كذلك..

6

وأكتبُها على حوافّ الأبجدية؛ كلاماً لا ينتهي وحديثاً ليس له بقية، وأستمعُ لكلِّ ما تقوله؛ مراقباً خيانة الكلمات وهي تحنُّ إليها قبل أن تغادرَ شفَتيها، إلى الصدى يُولد فيهما ويرجع إليهما ليموتَ ويُبعث من جديد، وأستمع لما لا تقوله أيضاً؛ إلى ذلك الهدوء المحتملِ في كل ما نسيَته العاصفة، عندما يُولد في عينيها اللهبُ وتستيقظ فيها شراسةُ المرأة الشرقية لتلخّص رعبَ الكون في نظرتين: أُوْلاهما وما تُحدِثه من تخديرٍ موضعيّ؛ وفي الأخرى وما يليها من ضياعٍ كليّ، وعن كل شيءٍ لا يشبههما إلا أنه بعضٌ منهما، هذا ما يحدث عندما تمتلكُ قلبكَ طبيبة؛ تصل خفيفَ الخُطى إلى الجنة أو لا تصل إليها أبداً!

وتوقفت سفينةُ العهد في مرفأ الحلم الجميل، وترجّلت الحروف إلى ميناءِ الكلمةِ الأخيرة، وبقيتُ أنا حيث أنا، مزدحماً بكِ؛ فارغاً إلا منكِ، أتابعُ انكساراتي وأحرفاً اعتادت أن تكون لي، وأربّي فرعَوناً صغيراً في داخلي، ذاك الذي أدركه الغرق في عينيكِ

عندما حاول أن يعبرَ البحر لأول مرة، ليبقى حياً فيهما بعد أن غرق، يراقب سنوات التّيهِ الأربعين تغتال بقيّته في الضفة الأخرى من هذا البحر..

يتحجّر الفرعون الصغير قليلاً قبل أن يتابعَ الغرق؛ تُرى كم واحداً قبلي في عينيها قد أبحر؟ كم واحداً قبلي فيهما قد غرق؟ سأقتلهم جميعاً؛ سأكون أنا العاصفةَ الوحيدةَ التي تحكم الرياح في هذا البحر، وحدي أنا ولا شيء آخر، طقساً لكل الفصول؛ نشرةً جويةً ثابتةً على مدار السنة..

وحطّ الفصل الباكي رحاله مبكّراً في ذلك العام، ولأنها الصحراءُ فما كان لنا من ماء السماء قطرة؛ وإنما يكفيكَ من الشتاء كآبةُ المنظر، والبرد الذي يشقُّ العظم، وكان أولُ أحداثه الحزينة مقتلُ فتاةٍ في سكن الطالبات الداخليّ على يد صديقتَيها بدعوى القبَليّة، وإن كان مثل هذه الفتنة مستبعداً حدوثها في هذا الزمان إلا أنها كانت تنخر جسدُ الأشياء في هذه البلدة وتعرّي قشرةَ الحضارة لتُريَك ما يبقى من جمال الفتاة عندما تغادره أنوثته..

ما زِلْت أذكر النظرة التي كانت تعتري وجهَ سراب لدى سماعها خبرَ موت أحدهم؛ لقد كان للموت حضوره في جزءٍ من ذاكرتها؛ حدث ذلك عندما اضطرتها ظروف الحرب في مدينتها عقب الثورة إلى التوقف عن الدراسة، وفي تلك الأوضاع الكئيبة فقدت والدتها جرّاءَ قذيفةٍ أسقطت سقفَ البيت عليها، وبعد ذلك بلحظاتٍ كان البيت بكامله قد سُوّيَ بأساسه، وما استطاعوا انتشال أمها من تحت الأنقاض إلا بعد أن تم التوصّل إلى هدنةٍ مؤقتةٍ بعد يوم ونصف للتفاوض بين الأطراف المتنازعة، ولم يتّفقوا

فعاد القصف من جديد؛ مما اضطر عائلتها إلى النزوح جنوباً لتستقرَّ في مدينتنا، ولا يهمّ كم كانت تحاول أن تخفيَ مأساتها تلك تحت قناع رئيسة الاتّحاد لأنها كانت تطفو على السطح مع صوتِ كلِّ رصاصةٍ، وصوت الرصاص لا ينقطع في هذه المدينة..

وما كنت لألومَها، فقد تطلّبَ الأمر منّي أن أشهد سحبَ جثّةٍ من تحت الركام لأعلم نوعَ الحرية التي يسعى إليها هؤلاء، لم تكن حريةً أبداً، وحتى هذه اللحظة لم أتمكن من فهم كيف لأحدنا أن يشهدَ انتشالَ أمّه من تحت الأنقاض بعد يومٍ ونصف وألّا يفقدَ عقله..

وأبحرت بي سفينةُ العهد إلى حيث أضاع النهرُ مصبَّه، والتقى الوالدان أخيراً، وإن كان التقاؤهما معجزةً زمنية؛ فقد كان والدي رجلاً كثيرَ السفر لا يُكمل شهراً واحداً في ذات المكان، بينما كان والدها يعمل خارج البلاد ويعود في الأعياد والإجازات فقط، وبقَدرٍ أشبه ما يكون للخيال انسجما كصديقين، وكأن موضوعَنا الذي جمعناهما لأجله بات أمراً ثانوياً يمكن إجراؤه في أي وقت!

ولأول مرةٍ مذ وطِئت قدمايَ هذه الأرض أحسست بأن الشمس لم تطلع يومها إلا لتبارك لي خطاي، وأن آدم لم يأكل الفاكهةَ المحرمةَ ويهبطْ إلى الأرض إلا ليكون سبباً في سعادة اثنين من أبنائه سيأتيان بعده بعصور، وأن كلَّ شيءٍ في الوجود قد أعادَ ترتيب نواميسه ليستقبل ولادة الحبِّ بأبهى صورةٍ عرفَها منذ الانفجار العظيم..

ولمّا كان أبوها لطيفاً جداً في تعامله مع والدي؛ لا يمكنني قولُ الشيءِ ذاته عن تعامله معي، فقد هدّدني بالقتل أكثر من سبعين مرةً في حضرة والدي، والأدهى؛ في حضور ابنته.. لقد

كان يستمتع بالأمر ويتسلّى بي، حتى أنه عرض أمامي جميعَ السلاح الذي جمعَه أيامَ الثورة، وكان سلاحاً ثقيلاً لا يُفترض أن تمتلكَه إلا الدولة..

وأرسل ابنته ذات مرةٍ لتحضر له "فخر عائلته"، وكان مسدّساً قديماً ورثه عن أبيه من حروب الاستقلال، ثم أمر ابنتَه أن تحشوَه؛ ففعلت باحترافية! ثم راح يقلّب عينيه تارةً بين كفّيه وتارةً بين المسدّس ورأسي، وبدأ يحدّثني عن قصّته مع المسدس وكيف ورثَه عن أبيه بعد أن انتهى الاستعمار، ثم صمت قليلاً وأضاف: "أتدري يا بني؛ لم يعودوا يصنعون رصاصاً لمثل هذا النوع من الأسلحةِ بعد الحرب العالمية الثانية، وليس لديّ فيه إلا رصاصةٌ واحدةٌ منذ أن ورثتُه، ولا أستطيع التفكير إلا في مكانٍ واحدٍ أضع فيه هذه الرصاصة" ونظر مباشرةً إلى رأسي بشكلٍ مباغت، ثم طبعَ ابتسامةً ماكرةً على وجهه ونظر إلى "الأسفل"...

وطالت زيارتنا الأولى وتبعتْها زياراتٌ أخرى تعرفتُ فيها على أخت سراب الصغرى ذات الخمسة أعوام، أحببتُ تلك الصغيرةَ حقاً، كانت تمتلك غمّازات أُختها وعينيها، ولم يكن التسلّط قد تمكّن منها بعد، إلا أنه لا بدَّ مقدّرٌ عليها طالما أن لها أباً مثلَ هذا، أما أخوها الذي يكبرها بثلاث سنواتٍ فلم أقابله أبداً إذ بدا بأنه يكون نائماً في كل مرّةٍ أزور فيها بيتهم، لم أفهم الأمر تماماً؛ هل يتعمّد تجاهلي مع أنه لم يقابلني قبلاً؟ أمِنَ الصعوبة بدرجةٍ أن ترى أختك في كنف رجلٍ دخل بيتكم من بابه؟ سألتُها عنه ذات يومٍ فقالت لي بأن لا أفتحَ الموضوع أمام والدها وأنها ستخبرني بأمره لاحقاً، طلبت مني أن أكون متفهّماً فالأمر ليس كما أعتقد..

لم يكن بيتُهم بيتاً عادياً؛ لقد كان ثكنةً عسكرية، وليس للأمر علاقةٌ بالسلاح وحده؛ فكل من في مدينتنا امتلك قطعةً أو قطعتين في بيته بعد الثورة؛ وإنما لشيءٍ تطلّب مني الكثير لأقبل إمكانية وجوده فضلاً عن تصديقه، كان ذلك عندما أخبرني أبوها عرَضاً أنهم يمتلكون دبابةً في قبو منزلهم؛ وأن الفتاةَ - الرقيقةَ الطبيبةَ التي ستصبح زوجتي - تنسلُّ إليها لتدرس بجوارها عندما يسبب لها إخوتها الإزعاج، وأبعد من هذا أنها تمتلك سلاحها الخاص الذي أهداها إياهُ بعد زيارتنا الأولى لهم، وأن اللّعينَ قد علّمها كيف تصوّب على مكانين بشكلٍ خاص، ولهولِ ما قاله لم أرغب حقاً في سؤاله عن المكانَين الذَين قصدهما؛ فقد كنت أعرفهما تماماً، بدا لي أنني سأفتقد الختم الذي اغتالت به صورتي في مكتب المسجّل!

واتفقنا على أن تكون الخطبة بدايةَ الشتاء والزواج منتصفَه، أتذكر يوم تحديد الموعد أنها تبعتني إلى باب بيتها واستأذنت والدي أن تكلمني للحظة، قالت والخجل يكاد لا يفارق نظراتها:

- لم يتغير الكثير بيننا منذ دخلت منزلنا؛ أليس كذلك؟ هل نحن مدركون تماماً لما نفعله؟

قاطعتها مضطرباً لأن الفكرة ذاتها كانت تؤرّقني أيّاماً، وأوحى لي وجهها أنها ارتاحت قليلاً لأنها وجدت ذاتَ الخاطر في بالي، وأن طريقة تعبيرها عنها قد التقت مع سيل هواجسي وجرت معه في نفس المجرى.

- لا أدري متى تعرفت إليكِ، ولست متأكداً تماماً مما حصل، لقد فكّرتُ بالأمر كثيراً حتى لم يعد بإمكاني أن أفكّر فيه أكثر، إلا أنني أعرف كم أريد هذا، كم أريدك..

قالت وشيءٌ ما يكاد يتحفّف من عينيها:
- أتعذرني فيما ادّعيت؟
أجبتها مبتسماً:
- أوليس يكفي أن بكيتِ؟!

الفصل الثاني

طاحونة الغبار

1

استيقظ ورد في الرابعة والعشرين من عمره على ذاتِ الوسادة التي وضعوا عليها رأسَه قبل أحد عشر شهراً، كجثةٍ هامدةٍ تعلّقت عيناه بسقف الغرفة، أحسَّ أن العضلات في عنقه قد اتخذت وضعيةً واحدةً وأيّ محاولةٍ لتغيير تلك الوضعية ستمزّق رقبته، وبدا له أن جفناه قد ثقُلا فجأةً والتصقا بأسفلهما، لم يستطع أن يحرّك من جسده شيئاً سوى عينيه، "أصدِأت مفاصلي فجأةً؟ من فعل بي هذا؟" حدّث نفسه، كان الرعب في داخله يتأجّج أكثر كلما أغرق التفكير في الحالة التي آل إليها، وما كاد حقاً أن ينزع قلبَه من مكانه هي فكرةُ أنه ليس باستطاعته السيطرةُ على جسده، لا شيء أقسى من أن يعصيَك جسدك.. شعر بقلبه ينبض بإيقاعٍ فوضويٍ وكأنه يريد أن يستقلَّ بذاته هو الآخر، أراد أن ينادي "أ.. أ.. أم ممم" خانته شفَتاه كما فعلت حنجرته؛ شعر بها رديئةً قديمةً وكأن طيراً قد بنى فيها عشه متيقناً أن الكلمات لم تعد تمرُّ من هذا الدرب، تزاحمت الكلمات في رأسه دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، أسقط أماله دفعةً واحدةً من صدره وعلّق آمالاً جديدةً في عينيه.

أرسل بصره في المكان من حوله، بيتُ من هذا؟ رائحته تشبه بيتَنا.. أحسَّ أنه ينتمي إليه مع أنه لم يكن فيه من قبل، أرخى بصره للأسفل إلى أبعد نقطةٍ يمكن أن يمتدّ إليها، اقشعّر بدنه فور أن أبصر جسدَه، لمن هذا الجسد النحيل؟ كم من الوقت بقيتُ نائماً يا ترى؟

"يوماً أو بعض يوم" قالها لنفسه مستهزئاً من سؤاله شيئاً كهذا "لم تلبث مئة عامٍ بالطبع!"

مرّت ساعةٌ وهو متصلِّبٌ كجذع نخلة، علم أنه يستطيع الحركة ويقدر عليها إلا أنَّ جسدَه أبى أن يطاوِعه، كأن دماغه وأطرافه يعملان بشكل منفصل، تخلّى عن فكرة تحريك جسده مقابل أن يحرّك يدَه وحدها، لوى عنقَه ما استطاعَ إلى الجهة اليسرى، ثمّةَ كأسٌ من الماء على جانب السرير، رغب فيه بشدة؛ كانت المرارةُ في حلقه قد بلغت حدّاً لا يُطاق، وأخذت يده ترعشُ في مكانها قبل أن يتمكّن من أن يرفعها ويضعها أخيراً على الكأس، وضعها ولكن لم يستطع أن يرفعَها؛ كان خائر القوى متيبس الأطراف كعجوزٍ على أعتاب المئة، حدّث نفسه: "ربّما لبثتُ مئةَ عامٍ فعلاً؛ ما أنا فيه ليس صنيعَ يومٍ وليلة" وما زاده عجزه إلا رغبةً في الماء، وبعد عدّة محاولاتٍ فاشلةٍ استغرقت منه لحظاتٍ كالأشهر رفع الكأس وقرّبها من فمه والماء ينسكب منها انسجاماً مع تذبذبات يده، وارتشف رشفةً هي كالغيمة تُمطر داخل جوفه وارتشفَ ثوبه الباقي، وسقط الكأس على جانب السرير، أحسَّ بالعجز كما لم يفعل في حياته، لم يتمالك نفسه واعتراه شعور بالشفقة على الحالة التي انتهى إليها، ما الذي يحصل لي؟ لماذا يحصل هذا لي؟

وانسكبت دمعةٌ حارّةٌ على خدّه تبعتها أخرياتٌ، بقي هكذا دقائقَ قبل أن يلمع الموت في رأسه، وتقاذفته ذكرياته بضعة أشهر إلى الوراء، هدير الطائرات، البيت، الانفجار، لطخاتُ من الدماء تترك لدى من يراها شعوراً مُبهماً بالألم، والده بين يديه يستحمُّ في دمائه ويأمره أن دعكَ مني وعُد لتُخرج أمك، يضعه على الأرض وهو غير متأكدٍ أن أباه يُدرك ما يقول، كيف له أن يكون بخيرٍ والدماء ترشح من قميصه؟ يتردّد قليلاً فيكرّر والده وهو يدفعه بيده الدامية: أدرك والدتك ولا تخشَ عليّ، عاد إلى المنزل مسرعاً، تجاوز الصالةَ والممرَّ إلى المطبخ، وقف هناك مخطوف اللون وجهاً لوجهٍ مع الموت، المطبخ لم يعد موجوداً بعد الآن، خطا خطوةً أو خطوتين إلى الوراء مكذّباً عينيه، أخذت يداه تبحثان في الغبار عن أمل؛ عن صوتٍ لم يطحنه الموت بعد، رأى يداً ممتدّةً إلى الأعلى من بين الحجارة، خطا فزِعاً باتجاهها وقلبه ينكر ما عيناه تُبصره، وعلى بعد خطوتين من جسدٍ كان في يومٍ من الأيام والدتَه علا صوت الراجمات فجأةً، وانقطع شريط ذكرياته عند هذا الحد..

وأخذ صوتٌ مُدوٍّ يتردّد في رأسه: أمي.. أمي..

وبدا له من بين دموعه صورةٌ لامرأةٍ تقف متسمّرةً عند بوابة الغرفة.

"أتكون أمي؟ هل هي أمي؟"

ركضت الفتاة نحوه وألقت نفسَها على صدره، وأخذت تبكي وتصرخ كمن لاقى حبيباً له عائداً من الموت، أحسَّ بالحرارة تتولّد بينهما من عنفِ تشبُّثها بجسده، وضاعت صورتها بين دموعها ودموعه، تمْتمت بكلامٍ غير مفهومٍ وهي تمرّغ دموعَها

في ملابسه، أدرك وقتها حجمَ فاجعة هذه المرأة فيه "قد تكون أمي.."

رفعت رأسها عن صدره وطبعت قُبلةً حارّةً على جبينه، بانت صورتها مشوشةٌ بين الدموع يحجبها الضوء القادم من باب الغرفة أو ربما البريق المتّقدُ في عينيها.

"كلا؛ ليست هي، ليست أمي...".

2

السادسةَ مساءً في بيت الفتاة التي أُحبُّ، لا يعني الوقتُ شيئاً إذا ما كنتُ بقربها، ولكنه الآن يعني كل شيءٍ إذ أنها تركتني في غرفةٍ واحدةٍ مع والدها وذهبت لتنهيَ شيئاً ما كانت تخبزه، كان قد أكّد لها قبل ذهابها أنها قد تعود ولا تجدني حيّاً! تقبّلتْ كلامَه على أنه مزحة، أما أنا فلم أفعل..

واقفاً يقلّب النظر في خريطةٍ معلّقةٍ على الحائط؛ يشبّك يديه خلفَ ظهره ويتأمّل وطناً يكاد من الخريطة أن يسقط، ويتبادل مع وطنه حسرته، أو هذا ما بدا لي، ونحن إذ ذاك حاولتُ أن أقارب المسافة بيننا، أن أفتحَ نقاشاً لا علاقة له بي وبابنته، نقاشٌ لا أتعرّض فيه للتهديد لمجرّد أنني واقعٌ في شِباك صغيرته، أو موقِعها في شباكي كما يظن..

- ما رأيك يا عم بما حدث الليلة الفائتة؟

وكانت قد شهدتْ مقتل ثلاثة رجالٍ لأنهم رفعوا أعلاماً مناصرةً للنظام البائد فوق سطح أحد المباني الحكومية.

التفتَ إليَّ وكأنني قد أيقظتُه من جلسة تأملٍ عميقة، ثم أعاد بصرَه إلى الخريطة.

- الليلة الفائتة؟ آه.. تقصد مقتل الثلاثة، لا ينبغي لك أن تسألني عن هذا فهو ما يحدث كلَّ ليلةٍ منذ قيام الثورة..

- إذاً ما رأيك في الثورة كَكُل؟

وأخرج إذ ذاك من قاع صدره زفرةً ثقيلةً؛ حملت معها هموم ستّينَ عاماً ولفظتها دفعةً واحدة، وكأنه أراد منها أن تُعيد له بيتَه وزوجتَه ووطنَه كما يعرفه..

رفع سبّابته إلى الخريطة وأشار إلى القطعة المحددة باللون الأخضر.

- كان وطناً حرّاً يا ولدي فقامت إليه مجموعةٌ من الأوغاد وحرّروه؛ فكان تحرُّراً من الحرية، وهكذا صُنعت العبودية، ودقَّ الابن الضالُّ مِسماره في نعش والده، ثم ضاعت هذه الأرض بين الجماعة الإسلامية الخجولة وتلك التي انشقّت عنها، والجماعةِ التي مثّلت دور الإسلام ثم تاجرت به، والجماعات الأخرى التي عادت كل من يخالفها، وشرَوه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة، وبينما كان يغرق في دماء أبنائه أغرقوا أطماعَهم في ظلال عرشه، واستحمّ كلاهما بما يليق به، هو بدمائه وهم في دناءة ما أدنَوا لأجله ذممهم..

- ولكن يا عم؛ حاكمكم لم يكن ظالماً بشكل عاديّ، بل جعل من ظلم باقي حكامنا نعمةً تستحق الشكر لا الصبر! على أنَّك تدرك أن الظلم أيّاً كانت صورته إلى زوال.. زِدْ أنه أوقف عجلة الحضارة في البلاد وعبّد أهلها، يتدخل في أصغر شؤونكم صعوداً إلى عباداتكم، كيف لك أن تُقرَّ بحكم رجلٌ يحسب عليك

طول لحيتك وعدد المرّات التي تدخل فيها بيت ربّك؟! يكفي أن تنظرَ إلى الكتاب الذي كتبه وألزمكم به، لقد كان مجنوناً! ولا أقول هذا لأنني أكرهُه بشكلٍ خاص، كلا؛ الجنون صِفةٌ تُنصفه تماماً..

- أجل، لقد كان تماماً ما تقول؛ مجنوناً.. وقد خدمتُ تحت لوائه أربعين عاماً، ألم تكن الثورة هي من أنتج النظام السابق أيضاً؟! أنت أمامَ شعبٍ لا يعرف ما الذي يريده فضلاً عمّا يحتاجه..

- يحتاج أفضل منه بلا شك؛ من المجحف أن تصِفَ الشعب بالجاهلِ العاجزِ عن تقرير مصلحته وتعمّم الأمر متناسياً أنك تتكلم عن أمةٍ بأسرها، لا يمكن لأمةٍ بأسرها أن تكون مغيَّبة.. ثم إن أمرها لم يكن بيدها؛ كيف تريد لها أن تكون غير ذلك وأنتم تحرّمون عليها أن تكون غير ذلك؟! ألا يتربّص الموت بكل ما يحاول أن يفتح فمه ويعترض؟! ألم يبلغ بكم الظلمُ أن تقيّدوا العقول وتسمحوا لفكرٍ واحدٍ بالنموّ هو ذلك الذي يمجّد الزعيم إلى حد النبوّة ويستأثر حتى بأخطائه؟! أنتم من فعل به هذا ثم أعادت خطيئتكم فيه ذاتها؛ والآن تقفون على الحياد تشاهدون الجهالة تتوالد وأنتم تترفّعون عنها متناسين أنكم كنتم أصل البلاء..

- تقولُ: "أنتم.."

اسمع يا ولد: لقد خدمتُ هذا الوطن أربعينَ عاماً آمراً عسكرياً على حدوده الشرقية، لم أُطلق خِلالها رصاصةً واحدةً على أبناء جِلدتي، لم أُقصّر في حماية هذه الأرض وأبنائها ولم يقصّر نظام الرجل المجنون ذاك في حماية أبنائي، أغيب عنهم أشهراً وأعود لأراهم أفضلَ في كل مرّة، كان لديهم أمٌّ حينها بوسعها - لو أرادت

- أن تسير ليلاً في أشدِّ الطرقات وحشةً دون أن يتعرّض لها أحد، ثم لمّا جاء أولئك اللُّقطاء بثورتهم اللعينة ماتت في عُقر دارها، لذلك أجل؛ أنا أفضّل مجنوناً يتحكّم في طول لحيتي على عاقلٍ سلبني زوجتي وفتق جرحاً لن يندملَ في حياة هذه الأسرة..

واكتفيتُ بالصمت.. النقاشُ الذي أردتُه أن يقلّصَ المسافة بيننا خلق فيها أبعاداً سحيقة، أردتُ أن أقول له أن الذين يتنازلون عن الحرية فداءً للأمن لا يستحقون أياً منهما، ولكنّ شيئاً كهذا يعني أن تقولَ له أن دماءَ زوجتك قد ذهبت سدىً، وأنك لا تستحق حياتك القديمة مع زوجتك ولا حتى حياتك الأخرى من بعدها، قد كفاني تلكَ اللحظةَ ما ألحقته به من مآسٍ دون أن أقصد، واعتراني شعورٌ بالذنب أخذ يتعاظم مع الصمت الذي خيّم على حنايا الغرفة المشبعة بالتوتر، كنتُ نادماً، مع أنني ظننت بأنني محق؛ ربما ما كان من حقّي أن أُلقي كلامي هكذا دونَ حساب..

وبينما كان والدها يداري خيبته وحسرته وأداري أنا ندمي دخلت علينا سراب بوجهٍ غير الذي خرجت به، ذهولٌ مبهمٌ ودمعٌ قد رسم طريقه بالفعل، كأنها قد أبصرت لتوّها عائداً من قبره..

سارع إليها والدها بينما وقفت أنا كالأبله خلفه، أمسَكها من ذراعيها وهزّها:

- ما الذي حدث؟ هل أصابك مكروه؟ هل أُختكِ بخير؟ تكلّمي..

لم تتكلم؛ ضمّها إليه واحتضنها

- لا بأس عليكِ يا صغيرتي، لا بأس..

كانت تنظر إليَّ من فوق كتفه تاركةً ذهولها يتلاشى بين ذراعيه، باحثةً في عينيَّ عن كلماتٍ تُسعف بها لغتها، قالت بصوتٍ مبحوحٍ غلبته الدهشة:

- ورد.. لقد استيقظ ورد.

3

فاقداً لوعيكَ أحدَ عشر شهراً تنتظر من القدر أن يصفعَك لتستردَّك الحياة بين طيّاتها حاضراً بحضورك لا غائباً به، لتعود إلى عالمٍ غريبِ المعالم ما عادت والدتك جزءاً منه، لم تكن هناك لمّا أهالوا عليها التراب وأودعوها ملاذَها الأخير، لأجلك تواجدت أربعةً وعشرين عاماً ثم لمّا احتاجتك أن تجتثَّها من تحت الركام تردّدت؛ خطوتَ إلى الوراء قبل أن تخطوَ نحوها؛ كنتَ أجبن من أن تراها على حافّة الموت، وبقيتَ جباناً أحد عشر شهراً بعدها، نائماً كنتَ وقلب والدك يحترق، وأختاكَ تبحثان عن كتفٍ تُسنِدان عليه ضعفهما ولا تجِدانه، ليس لك أن تسمّي نفسك رجلاً وأنت لم تحاول جهدك أن تكون، تعيش على كاهل الأسرة التي يُفترض أن تقوم على كاهلك، تباً لك من بين الرجال..

يا غائباً عن صفحة الوطن؛ ما زاد الوطن من بعدك إلا خراباً، لقد تدمّرت الجنّةُ التي كنتَ تسكنها، لاجئٌ أنت الآن في أرض الجنوب، لاجئٌ في هامش وطنك، قاسٍ هو الحال إذا أردتَ أن تصِفه؛ مستحيلٌ لك إذا أردتَ أن تعيشه، ولكنك تعتاد غربتك حتى وإن كانت حيث لم يضع أيٌّ من أجدادك قدمه، تعتادها لأنه يجب عليك ذلك؛ ولأنها الطريقة الوحيدة لتستمر، لتكون في إطار مجازٍ يشبه الحياة، وما أن تعتاده حتى يصبح خيالك حقيقتك، وجحيمك جنتك، وإن لم يحصلْ ذلك لك فهو لا شكَّ حاصلٌ لأولادك، أولئك الذين ولدوا في المنفى فحسبوه أرضاً لهم، كيف وهم ما عرفوا

أرضاً غيره، لم يعرفوا المدينةَ الفاتنةَ التي تغفو على سرير الساحل؛ يغطّيها الموج تارةً وينزع عنها ثوبَها تارةً، تلك التي تحتضن في صدرها قلبَ العظيمة التي تركْتَها بين الحطام ودخلتَ غيبوبتك، ماذا سيفعل أولادك بأرضٍ لا يربطهم بها إلا حكايا لن يسمعوها من جدّةٍ ميتة؟ تنفّسْ هواءَ الأرض الغريبة مراراً فلن تستطعمه؛ تنفّسْ هواءَ الأرض الغريبة، يا مَنْ لغريبٍ في وطنه!

والكون من بعدك لم يكْترثْ، وتابعت الأرض دورانها كما تفعل منذ الأزل، لم يرمشْ لأجلك عقرب الساعة لحظةً ولم تفعل كذلك عيون من قتلوا والدتك، ونام الجبناء ملءَ جفونهم على حقول النفط، ذلك السائلُ الأسودُ العفِنُ الذي يقيس قيمةَ الشعوب مع أنه ناتجٌ من رفاتها، أما القوى المسيطرةُ فلم تستطع أن تحُلَّ معادلةَ السلام الصعبةَ بعد، في العام الذي كنتَ فيه غائباً دخلوا تسعَ عشرةً جولةً من الحوار، أُغلقت على إثرها خمسة مطاراتٍ أحدُها احترق حدَّ التفحم؛ وما عاد صالحاً لأن تهبطَ فيه ذبابة!

وكما كنتَ دائماً بقيت: محكوماً أبداً بالخيبة، تنظر إلى أختك تقوم بدور أمّك ودورك معاً، وقد تقدّم لطلب يدها شابٌّ ما، قالت لك أنها لن توافق عليه ما لم توافق عليه أنت، ألكَ حقٌّ أن تتدخّل في شؤونها وهي التي طوال أشهر غيابك بقيت قائمةً ترعاك؟ تهرس الطعام وتُدخله في الأنبوب الخارج من معدتك، وتُقلِّب جسدَك البالي كلَّ بضع ساعاتٍ بعدَ أن تدلّك مراكزَ إسناد وزنك بالكحول والزيت كي لا يتكدَّس فيها دمك الخامل ويتجلّط، تستيقظ في الليل لتراقبَ نبضَك ومعدّلَ تنفّسك، وقد تُكمل ليلتها بجوارك إذا لم يطمئنَّ قلبها، كل هذا وهي لم تُصبح طبيبةً بعد، لا تزال في الحادية والعشرين وتفعل ما لو طُلب من رجلٍ لأعجزه، ولمّا

استيقظتَ أفاضت حنان والدتك عليك حتى لَكدتَ تظنُّها والدتك، وكنت لمّا ميزتها لعيناً خائباً لأنها لم تكن، قابلتَ حنانها بنظرتك البلهاء فرفعت وجهَها الباكي إلى جبينك وقبّلتك، تماماً حيث اعتادت والدتك أن تُقبّلك..

يا أعجزَ الناس عن أن تكون عاجزاً مثلهم؛ ما أعجزك! كم مرةً عليك أن تسمعَ التمنّيات بالشفاء قبل أن تدرك كم أنت مثيرٌ للشفقة؟!

4

من ظلام القارّة العجوز جاؤوا ليهدموا عرش الرجل المجنون ويتقاسموا من بعده خيبته وخيمته؛ وما تنامان عليه من بحورٍ سوداء، فتقاسموهما.. وعادوا في الظلام ذاته بالنفط وحده؛ تاركين للغافلين من بعدهم خيبةً مجزّأة كما يليق بشعبٍ تحكمه القبيلة وتدير شؤونه المليشيات المسلحة..

دولةٌ بحكومتين؛ لكل وزارةٍ فيها وزيران، يرتفع في سمائها علَمان؛ علمٌ لنظامٍ قد مات بالفعل ولا سبيل إلى رجوعه، وعلمٌ لثورةٍ ساقطة قتلت بعد أن انتهت أكثر مما قتلت حين كانت مستمرة، كل ما في الأمر أنك استبدلتَ طاغيةً بطاغية؛ الأول كان يفعلها عامداً متعمداً، والآخر فاقدٌ للسيطرة؛ أحمقُ يفعلها بحسن نية..

كانت الثورة أولَ ما بدأت عظيمةً في معانيها؛ امتلكت رجالاً وصل بهم الظلم المفروض عليهم حداً بذلوا أرواحهم في سبيل رفعه، ونجحوا في ذلك لكن بمعونةٍ أجنبية، كان على الدول التي

تمتصُّ دم هذه البلاد أن تضمن موضعاً لقدميها بعد أن أدركت أن الرجل المجنون ساقطٌ لا محالة، فكانت هي من وفّرت غطاءً جوياً للثوار المتواجدين على الأرض ودبّرت لهم أمر عبور السلاح من الحدود، كما وأشرفت على اغتيال رموزٍ بارزةٍ على أيدي مرتزقةٍ من الشعب نفسه، وأطلقت منظومتَها الإعلامية تُمجّد الثورة وتسبّح بحمد مُفجّريها..

ورفع الثوارُ البلاءَ المفروض عليهم بطريقةٍ خاطئة؛ ولكنّهم رفعوه، كان بإمكان الأمور أن تسيرَ على ما يُرام بدءاً من زوال النظام السابق ولو بطريقةِ " أنا والغريب على أخي " إذ كان أخي غريباً أيضاً، ولكن بعضاً منهم لم يتوقفوا عند حدّ رفع الظلم بل ردّوه مضاعفاً على كل من ظلمهم بمنطقٍ يقول " كما أنني ظُلمت دهراً فسأظلم دهراً "، وضاعت البلاد في أتون التصفيات الجسدية والتفريقات العنصرية، وعاد التنظيم الطبقيُّ إلى أشدِّ أشكاله بدائيةً حيث كانت القبيلة لا تزال حاضرةً بقوةٍ في أرضٍ حديثةِ عهدٍ بحضارة..

وانقسم الجيش إلى كتائب صغيرةٍ قد تبدو مجتمعةً إلا أنّ أيَّ مشكلةٍ قبليةٍ تافهةٍ تُعيد أفراد الكتيبة الواحدة كلٌّ إلى حيثُ ينتهي انتماؤه، وتُركت الحدود بعد الانقسام مفتوحة عدا عند المعابر، وأصبح المجالان الجوّي والبحري مشاعاً لكل من أراد أن يخترق، وانتشرت تجارة السلاح والمخدّرات والهجرة غير الشرعية، وكثُرت السرقات وعمليات القتل والنهب المسلّح حتى لم يعد أحدٌ يُخفي وجهَه إذ يقوم بجريمته؛ يفعلها وضحَ النهار، واختفى وجود الشرطة تماماً بعد أن أصبح سلاح الدولة الثقيل بيد الشعب وتحت سطوة قبائله..

وظهرت إذ ذاك حركاتٌ نادت بتحكيم العقل ونبذ الفُرقة، ولكنها كانت ضعيفةً لم يُسمع لها أيُّ صدى، إذ لم تكن تمتلك قوّةً مسلحةً تُعطي لأقوالها هيبةً وتفرضها قانوناً يُحكّم، حتى الحق - وهو حق - لا بدَّ له من قوةٍ تُعينه، القوة.. إذا لم تستطعْ أن تحلَّ بها مشاكلك فأنت لا تستخدمها بالقدر الكافي أو الطريقة المناسبة، فهذا العالم ليس مكاناً للضعفاء..

وكما في كلِّ فتنةٍ تعصف بهذه الأمة فإنَّ أسطوانةَ السلام يعزفها رجالٌ استحوذ عليهم الشتات واشترت ذممهم دول المنفى، أناسٌ يذرفون الدموعَ لأجلك على التلفاز مع أنهم لا يشعرون بشيءٍ من مأساتك وأنت تقف في صفِّ محطة الوقود أربع ساعاتٍ لتملأ خزّان سيارتك؛ ثم تذهب إلي بيتك لتفرغ الوقود في مولّد الكهرباء لأنها مقطوعةٌ منذ أيام، لا يعلم هؤلاء أنك تعمل دون راتبٍ منذ ستّة أشهر، وعندما تنزل الأشهر الستة معاً فإنك تخاف أن تذهب إلى المصرف لتسحب راتبك، ينامون وهم يدّعون أنهم يحلمون بغدٍ أفضل لوطنهم الذي يخشون الرجوع إليه حتى في أحلامهم؛ وأنت لا تنام لأن الاشتباكات وإن أخطأتك فلا تمانع أن تهزّ بيتك، يحيكون آمالهم بنسيج آلامك، ويصمّون آذانك بالكلام عن اللُحمة الوطنية والتنمية البشرية، بينما تعلم أنت يقيناً أن أكبر حقيقةٍ أغفلها دعاة التنمية البشرية هي أنّ الإنسان لا يحتاج من ينمّيه بقدر ما هو بحاجةٍ إلى من يوقفه عند حدّه...

5

- لعلّك غاضبٌ أني لم أُخبركَ عنه..

- لعلّي سعيدٌ لأجلكم؛ كيف هو الآن؟

- تُعطي جلسات العلاج الفيزيائي مفعولها معه، بإمكانه الوقوف والمشي مع أنه يعرج قليلاً وقد يسقط أحياناً، إلا أنه أفضل حالاً بكثير، تزوره أخصائيّةٌ تساعده على استعادة النطق بشكلٍ صحيح، وقد استعاد بعضاً منه بالفعل ولكن على هيئة كلماتٍ بطيئة؛ مقطعةٍ أحياناً، قالت بأن موضوع النطق قد يأخذ وقتاً ولكنه سيستعيد قدرته كاملةً بإذن الله..

- أتدري لمَ لمْ أُخبرك سابقاً بشأنه؟

- لوالدكِ علاقة بالأمر؛ ثمّ إنّك لستِ مضطرةً لفعل ذلك، للبيوت أسرارٌ لا يحقُّ لي أن أعرفها؛ ليس بعد..

- كلا؛ أريدك أن تسمع الحكاية كاملةً..

بدأ الأمر مع يقظة الثورة في المناطق المهمّشة من البلاد؛ كانت أحداث العام الحادي عشر من الألفية الثالثة مُربكةً لمعظم مناطق الدولة وأركانها بسبب مشروعيةِ الخروج على الحاكم لا بسبب أعداد الخارجين فقد كانوا قِلّة خائفة، إلا أنها لم تعنِ شيئاً لنا؛ بل كانت أحداثاً عبثيةً بوسع الشرطة وحدها أن تتعاملَ معها دون تدخُّل الجيش، إذ كانت قبيلتنا والمنطقة التي نسكنها مواليةً للنظام بحكم أنَّ معظمَ أفرادها منخرطون في الجيش، بل إنّهم تبوّؤوا في الجيش مراتبَ عليا لأجيالٍ ولم يشكّ أحدٌ في ولائهم..

كان والدي في تلك الفترة آمراً عسكرياً على المنطقة الحدّية من ناحية الشرق، ومع أنَّ وتيرة الأحداث بدأت تتصاعد سريعاً إلا أنهم بقوا في موقعهم ولم يُطلب منهم أن يتدخلوا، واستمرّ الوضعُ هكذا طيلةَ أشهرٍ ثمانية، ومع مطلع الشهر التاسع تدخّل الطيران الأجنبي وبدأ بقصف معاقل الجيش والأماكن الحيوية في

جسم الدولة، ما مكّن الثوار من السيطرة على بعض المناطق الهامشيّة بدايةً والمركزية تالياً، ومع استمرار القصف الأجنبيّ تحتّم على الجيش تغيير مكان الحاكم تِباعاً حِفاظاً عليه، فانقطعت الاتصالات بين مفاصل الجيش، وبقيت ألويته ترتجِل بناءً على آخر أمر أُرسل إليها، والذي بمقتضاه حاربوا أيَّ مسلَّحٍ معارضٍ للنظام، ولم تُطلق رصاصةٌ واحدةٌ في سماء مدينتنا طوال تلك الأشهر إذ كان أكبر لواءٍ في الجيش موجوداً لدينا إضافةً إلى الألوية المشتتة التي اجتمعت تحت رايته..

وتسارعت الأحداث مع توسُّع سيطرة الفصائل الثوريّة على حساب الجيش المنكوب والذي فقد بالفعل غطاءه الجويّ، إلا أن تلك الفصائلَ مجتمعةً ما كانت لتفكّر حتى بالاقتراب من مدينتنا؛ كان من الواضح لهم أنها معركةٌ خاسرة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً حيث أُشيع في البلاد أنَّ الرجلَ المجنونَ قادمٌ إلى تكتّل الجيش ليشنَّ به حرباً مضادة..

ولدى انقطاعِ الاتصالات مع القيادة العليا وتنامي الإشاعات حولَ عودة الرجل المجنون إلى المدينة الوحيدة تقريباً التي بقي وجود النظام فيها فاعلاً وكاملاً؛ غادر والدي ومن معه مواقعهم على الشريط الحدّيّ، وأمر قادةَ الكتائب بتسريح أفرادها على أن يعود كلُّ واحدٍ منهم إلى اللواء المقاتل بجانب بلدته، وتم بذاك تخفيض الحراسة الحدّية لتشمل المعابر فقط، وحملوا السلاح الذي كان بحوزتهم كلٌّ إلى اللواء الذي يقصده، ولمّا ما كان من الممكن تأمين السلاح الثقيل بيد سلطةٍ فعليةٍ ولا إخفاؤه؛ توزّعت الراجمات والدبابات والمدرّعات بين أصحاب الرتب العليا والذين ساروا إلى مدينتنا على العكس من الجنود الآخرين، ولكنّ والدي

لم يفعل؛ أو كاد لولا أنه في الطريق إلينا تلقّى نداء استغاثةٍ تمَّ بثّه على موجةٍ خاصةٍ بالجيش من قاعدة عسكريةٍ سريةٍ في الجنوب، فحوّل مساره هو ومن كانوا معه..

كان الجنوب خاملاً وقتَها لا علاقة له بباقي البلاد وما يحدث فيها، في الواقع لقد قامت الثورة في الجنوب قبل نهايتها في باقي المدن بشهرٍ واحدٍ فقط، وترك أبي ومن معه دبابتين لدى القاعدة العسكرية؛ إحداهما هي تلك التي حدّثك عنها والتي انتهت أخيراً إلى قبو بيتنا بعد أن نزحنا جنوباً، ثم عاد والدي مع اثنين ممّن كانوا معه إلى مدينتنا..

أما عن حالنا نحن داخل المدينة فقد كان الهلع في مستوياته الدنيا بين أفراد الجيش بينما كان يتأجّج في نفوس العامة، فأخذوا يخزّنون الطعام والوقود ويعدّون عدّةَ حربٍ ربما لن يعيشوا ليقصّوا حكاياها، وعاد والدي بعد غيبةِ ستةِ أشهرٍ إلينا حاملاً معه تشاؤماً قلَّ أن رأيناه في وجهه، وبقينا لأيامٍ نترقّبُ معركةً فاصلةً بين أبناء الجسد الواحد في سبيل البلد الواحد..

بعد عودة أبي بخمسة أيامٍ بدأ القصف الجويُّ للمدينة، استيقظنا في الثانية صباحاً على صوت انفجار خزانات النفط المحاذية للساحل، خرجنا فزعين من أسرّتنا لنرى الموت من فوقنا يتلألأ بين قطعِ الظلام، كانت خطوط الكهرباء وشبكات الاتصال مقطوعةً بالفعل، وصافرات الإنذار المبكّر تقرع الآذان منبئةً أنْ قد حان موعد الاشتباك بين الموت والحياة، وغادر من الناس من استطاع الوصول إلى طرف المدينة حيث يوجد المشفى ومن ورائه الملاجئ، ولأنّ الجيش فقد ترسانته الجويّة منذ مدةٍ فقد كان

يضرب عشوائياً إلى الأعلى، معركةٌ بين الأرض والسماء؛ وللسماء فيها الكفّة العليا..

قضينا ليلتنا تلك في الممر وسط المنزل بعيداً عن النوافذ والأبواب، تحلّقنا حول أمي؛ هي الشمس ونحن الكواكب، لم يتوقف لسانها عن التسبيح والدعاء حتى لكأنها مطمئنةٌ لا خائفة، أختي ترتجف في حضنها، أما ورد فقد كان يحاول جاهداً أن يظهر بمظهر والده؛ حتى والخوف بادٍ في عينيه يتمسّك برباطة جأشه، تضمّنا أمي إليها كلما اهتزَّ البيت أو لمعت النار من إحدى نوافذه البعيدة، كان والدي في الجبهة المقاتلة عندما بدأ القصفُ ما زادَنا توجّساً وهلَعاً، وكلما سمعنا صوتاً مدوّياً طافت فكرةُ الموت في الرؤوس الأربعة، لن يعود حياً، أو قد يعود ولا يجِدنا أحياء..

استمر القصف ساعتين متواصلتين لينتهي قبيلَ الفجر، لم يُرفع الأذان في تلك الليلة، ومع ساعات الصباح الأولى اتضح اتّساع رقعة الدمار، وطلعت الشمسُ على بلدةٍ غير تلك التي بالأمس ودّعتها، دخانٌ أسودُ كثيفٌ يسدُّ الأفق يخرج من كل بقاع الأرض حولنا، وما زاد ثقلَ الهزيمة أنّ أحدَ ألوية الجيش أثناء فوضى الاشتباك فتح نيرانه على لواءٍ آخر..

نكبةٌ.. وليس بوسعي أن أبثَّ غبارَ الحرب إليك في كلمات، لربما لو كنتَ هناك لخذلتك لغتك، قضينا ساعات الصباح الأولى نحاول ما استطعنا أن نتبيَّن ملامحَ المدينة؛ علاماتِ العائدين من الموت: أنينٌ أو حركةٌ متهالكة، نجتثُّ الجثثَ ونرفع الأنقاض، ما من شارعٍ إلا وفيه مأتمٌ، كان بوسعي أن أعدَّ المباني التي لا تزال قائمةً بذاتها؛ ترمي بأفيائها على ركام جاراتها، أتدري ما قيمة

حياتك؟ هي قيمةُ من تركك الموت ليختارهم، أنتم سواء مع اختلاف موعد الرحيل في الأزل، ودرجة الإسقاط من مدافع الطائرة بالطبع..

عاد والدي مع الظهيرة غارقاً في بحرٍ من الدماء، "ليست دمائي" أوّلُ كلمةٍ قالها وهي أيضاً كل ما قاله، لم تصدّقه أمي، بقيت تقلّب ملابسه وتتحسّس جوارحه، لم يكن الدمع عادةً لعينَيها ولكنه حفر طريقه في خدّيها وحفظه خلال ليلةٍ واحدة، لم تصدّق أنّ الموتَ الذي ابتلع نصف المدينة قد غصَّ بزوجها ولفَظَه، كانت تظن أن الموت لا يعرف إلا أن يأخذ، وماتت قبل أن تعرفَ كم كانت محقة.

لم يستطع والدي التخلص من والدتي بسهولة؛ فما كان منه إلا أن رفعها كطفلةٍ من تحت ذراعيها ووضعها على الأريكة، ضحكنا لما فعلها؛ في وجه الموت ضحكنا، نظر إلينا آمراً: " كلٌّ إلى غرفته، ارفعوا أغراضكم الضرورية فقط؛ أوراقكم وشهاداتكم وملابس تكفي ليومين، سنغادر المدينة.."

لم يناقشه أحد؛ هرعت أمي إلى المطبخ تحضّر مؤونةَ الطريق، بينما حضّرتُ أنا وورد الحقائب، وذهب أبي ليحضر الوقود من المخزن..

قبيلَ الغروب؛ وقبل أن نربّي أملاً غضّاً يكفينا للفرار عِوض النصر؛ بدأت موجةُ القصف الثانية، والتي صاحبها اشتباكُ القوى الثوريّة فيما بينها؛ إذ إنّ بعض الفصائل ارتأت أن تتوقف بعدما شهدت ما فعلته الطائرات الأجنبية بالمسلمين مثلهم؛ المواطنين كذلك في بلادهم، في حين أن الفصائل الأخرى ارتأت أن تُتابع ما بدأته؛ حاملينَ في نفوسهم أحقاد الماضي على نظامٍ يمتصُّ

دماءهم منذ عقود، فيهم من قُتل ابنه وفيهم من عاش دهراً في السجون، وفيهم من اغتُصبت أمواله وهُتك عرضه، فما كان بوسعه ولو أراد أن يُفسح مجالاً لعاطفته، فقد كانت ميْتةً بالفعل..

صوت الهلاك في قاموس القلّة الناجية أضحى صوتَ طائرة؛ تشقُّ صفحةَ السماء من فوقنا ومكامن الأمن في أعماقنا، وتمطرنا بوابلٍ من الموت الأبيض، انهار جدار المخزن مع القذيفة الأولى، سمعنا صراخَ أختي ففزعنا إليها؛ وإذا بأبي مطروحاً أرضاً والجدار نائمٌ على صدره، انتشله ورد وحمله إلى جانب السيارة، وحملتُ أختي إلى داخلها، وميضٌ أبيض يخترق الجزء البعيد من البيت، صاح والدي بورد أنْ أدرك أمك، أسرع ورد إلى الداخل وبعدها بلحظاتٍ كان البيت بكامله قد غاب في الغبار..

"عندما تغيب الشمس يُشرق المُبعَدون وراءها "

قالت أمي ذلك يوماً.. لم تخبرني أنني ذات غروبٍ سأصبح يتيمة، أني سأخسرها في لحظة إجحافٍ كونيٍّ بليد، لم تقل إنها ستخرج أشلاءً من تحت الركام بعد يومٍ ونصف وتعود إليَّ لأدفنَها في التراب مرّةً أخرى.. حضنتُ الصغيرةَ بين ذراعيَّ كي لا ترى حجارةً كانت في يومٍ من الأيام بيتَنا، بحثتُ عن أبي بين الدموع وفوضى العبارات، لا يزال على الأرض؛ ساكناً باكياً، ستّينيٌّ في السلك العسكري ينتحب كطفلٍ في الخامسة، ما فعلت بك الدنيا يا صاحب القلب الكسير؟ أبكيكَ أم أبكي فؤاداً عليكما يتفتت، يا من لنا.. غرباء في الوطن الغريب؛ ندماءُ للموت القريب، أشباحُ أجسادٍ وأشباهُ أفئدة، تسير بهم مركبةُ القدر على طريقٍ متعبةٍ نحو مجهولٍ بعيد، يحملون معهم جثةً ويكادون يحملون اثنتين، صاح المذياع مُعلناً وقوع الرجل المجنون في

قبضة الثوار قبل أن يضيف أنه قد أسلم روحَه العفِنة، مرّت السيارة بجانب خزانات النفط المشتعلة منذ أيامٍ ثلاثة، وابتعدت عنها وعن جارة الساحل الحزين إلى الأبد..

6

لم تكن مصادفةً أنْ أتَينا إلى الحياة بكّائين؛ لم تكن.. لم تكن مصادفةً أنَّ جرعةَ الهواء الأولى في رئتيك هي ما أيقظت صوتَك من سباته، فصرختَ وصرخت.. وأفرحَ الجميعَ صراخُك! أظننتَ حقاً أن حياةً بدأت بضعفٍ وتنتهي بضعفٍ لن تكون محكومةً بالعجز بين ضَعفَيها؟!

أظننت حقاً أنّ الحياة التي قَسَت عليك مِراراً كانت تحاول أن تغريَك لتتشبّثَ بها بقوّةٍ أكبر؟ لقد كانت تحاولُ أن تقتلك، أن تخبرَك أن الفناءَ نتيجةٌ حتميّةٌ للوجود، وأنك متى أتيتَ زهرتَها فإنك آتٍ ذبولَها أيضاً، كانت تحاول إخبارك أنّ عليك أنْ تصحوَ وتنظر إلى ما حولك بعينٍ ميتة، أن ترى الجانب السيّء الذي قد تؤول إليه الأمور، أنْ تعلمَ أنّ التفاؤل سذاجةٌ في غير موضعه، وأنّ من حق الأمور السيئة عليك أن تفكّر بها بشكلٍ سيء..

أظننتَ حقاً أن ضعفاً سافِراً سيُجبر صفحة السماء على ردّ القنابل إلى جوفها؟ أظننتَ حقّاً أنّ الجاذبية ستعاكس نفسها لأنّك تحسب أنّ صوتك أعتى من سنّة الحياة؟ إذا لم تكن قوياً فأنت لم تكن، ولن تكون حتى تدركَ أن الحياةَ أهون من أن تقضيَها على الجانب الخاطئ في الفكر والانتماء والغاية، أنت أفضل حيّاً فقط

إذا كان لحياتك مردودٌ ما، وإلا فموتك كحياتك: استنزافٌ في جوف الأرض أو استنزافٌ على ظهرها.

وهكذا يخبو فتيلُ الحياة في جسد الأمّة العظيمة؛ لتبصرَ موتها في كل ما حولها قبل أن تبصره قائماً فيها، مأتماً للراحلين دون أن يرحلوا ولأولئك الذين كانوا منذ البداية راحلين.

الفصل الثالث

على أرض السراب

1

لو أنّكِ أحببتِ الشتاءَ حقاً ما أشهرتِ في وجههِ مِظلّتك، أتخْشينَ البللَ يا صغيرة؟ ليتكِ تعلمين كم كان المطر سعيداً عندما بلّلك، كانت قطراتُه تصلّي استسقاءً في الغمام طوالَ ديسمبر علّها تسقط يوماً ما وتكون معكِ، قريبةً منكِ؛ بعيدةً عن كلِّ شيء، تنسابُ في خِفّةٍ وتذوبُ في مِعطفك، ولّى زمان الخوف فأزيحي رعبَ المظلّة، واتركيني كي أرى أثرَ الحنين على الغياب؛ أثرَ السحاب على السراب، واتركي قلبي أنا؛ مَن كان قلباً واختفى.. كان أشياء كثيرةً ولم يعد، قاسياً أردتُه أن يكون؛ لكنه مذ عرفها يشربُ حليبَه باكراً وينام في ظلّ الجفون، وربما ما كان شيئاً يُذكر قبلها؛ ولكنه كان لي.. كان لي...

ذات خريفٍ لمّا قابلَته قالت: "أكرهك؛ تُربكني؛ تُفقدني صوابي؛ تجعلني أبدو ضعيفة..."

وحتى هذه اللحظة كانت توقفه أحياناً عندما تمطر لتقول له وهو يسحب المظلةَ عنها ويتركها تتبلل: "تُربكني؛ تُفقدني صوابي؛ تجعلني أبدو ضعيفة، ولكنني لا أكرهك، أعلم أني فعلتُ

ذلك كثيراً ولكني الآن مهما حاولت لا أستطيع أن أفعله؛ لا أستطيع؛ أظن أنني أنا.. أنا.."

ودائماً ما كان يقاطعها في منتصف الكلام؛ فقد كان يعرف ما تريد أن تقوله؛ كان يعرف ما لا تريد أن تقوله، كان يهوى قراءتها، كانت عيناها قِبلته، كان ارتباكها كتابه المفضّل، يقرأ فيها ثم يكتب عنها، وكم أحبَّها عندما كانت كلماته تخدِش خدّيها ويبدأ الأحمر فيهما بالتوهّج؛ في تلك اللحظات يقاطعها دائماً ليقول لها: " لكي لا أكون يوماً قد جعلتك تكرهينني بشكلٍ أقل؛ سأحاول دائماً أن أحبكِ أكثر... "

وما كان كلامُه ليعجبَها؛ فهي التي لا تنام الليل منذ أن عرفته، كلا؛ لم تكن تكرهه، لقد كانت تحبّه حتى الامتلاء؛ كانت تَعدُّ الثواني في انتظار لقائه، تحفظ عنه كل ما يكتبه، وتقضي في مطبخها ساعاتٍ وساعات تُعِدّ أفضل ما يمكن ليَدين أن تُعدّه ثم تطلبُ رأيه في طعامها، ذاك الذي صنعته بلهفةٍ وخبزته بحب؛ كانت تريد منه أن يحبّها حتى التُّخمة!

2

وفي الجنوب جامعتُنا؛ سوقٌ للوجوه المستعملة، يتردّد في حرمها آخرُ صيحات النفاق وأكثرها إقناعاً للعين قبل العقل، ولهما معاً إذا رقَّ القلب، يقضي الشيطان فيها معظم وقت فراغه؛ في القاعات والمدرّجات وتحت الشجر وفي الزوايا البعيدة المخبّأة التي تخشى كلامك عنها وفي الساحات الشاسعة الواضحة التي

لا تكترث لما تظنّه بها أساساً، غير أن الشيطان لا يدخل المكتبة، إذ لا يدخلها من الطلاب أحد؛ ليس للقراءة على الأقل..

حرَمٌ بغير حُرمة، يمثّل الطالب الجامعيّ فيه صورة حضاريةً لفتى الأدغال؛ طموحه أن يكون صديقاً لنصف نساء الغابة / المدينة، ولا يقبل لأحد من رجال الغابة / المدينة أن يكون صديقاً لفتاةٍ تخصّه، تُعرَّف هذه القاعدة الغريبة لديهم خطأً بـ"الشرف"، أنى لمن لا يعرف العفّة أن يبحث عنها؟ فالأسهل والأمتع لا يترتّب عليه نفقةٌ وبيتٌ ومسؤولية، ولا يترتب عليه رجولة أيضاً..

تمثّل ممرّاتها نسخةً عربيةً لأسبوع الموضة، أحياناً تشكُّ بالفعل أنك في كلية الطب، تضرب بعض الطالبات - والمدرّسات أيضاً - أمثلةً مجرّدةً على عقدة النقص: مقدارُ الأنثى بقدر ما تُظهره، والقناعةُ تَفنى وتُستحدث وتتغيّر من شكل لآخر مع تقلُّبات الحالة العاطفية والمزاجية والرغبة الدونيّة الملحّة بأن تكون أجمل لا في ذاتها بل في عيون باقي البشر..

الحبُّ في قليله التقاء أرواح وفي كثيره صناعة أو تصنّع، والتصنّع هو النسخة الرخيصة التي تُباع في حوانيت الجامعة، والكلام الأجوف لا يقوم عليه بيتٌ ولكن عليه يُهدم، أمّا الجمال فلا تصنعه مساحيق التجميل، ولا يرسمه طلاء الأظافر، ولا يحتاج أساساً ليثبت، بل من الأفضل أن تكوني مع شخصٍ يراكِ في أسوأ حالاتك ولا يزال يهتمُّ لأمرك على أن تكوني مع أعمىً بوصلته عينه لا قلبه..

تتطاير العناوين وأرقام الهواتف كما تتطايرُ الصحف في أرض المحشر، إلا أنّ الجميع هنا يستلم صحيفته بشماله، قليلٌ

يعرف الفعلَ الصحيح وأقلُّ من يقوم به، للبيوتُ أبواب تطرقها لأنك رجل؛ وإلا فإنّك تدوس قلبك لأنك أيضاً رجل، وقد وُجدنا في هذه الحياة لغايةٍ عُليا، أكبر من هموم هذا البلد، أكبر من وطنٍ في جسد، وانظر إلى بلادك الخربة؛ جزءٌ ما من خرابها هو أنت...

3

وأطلقت الصغيرة يدها إلى السماء، تباهي بإشعاع خاتمها شعاعَ الشمس، تريد أن تقول لها: أيّنا يستحق أن تتركّز فيه الحرارة وتدور حوله الكواكب؛ إصبعي أم مدارك الهرم؟!

- ياه! لا أصدّق أننا مخطوبان! أتصدق ذلك؟! ما الذي يعنيه لك هذا؟

- أنني أحبك

- إنها أول مرةٍ تقول هذا..

- أقول ماذا؟

- أنك تحبّني صراحةً؛ دون عبثٍ بالكلمات وليٍّ للحروف، دون رسائلَ غريبةٍ تعطيها لأختي وتدفعها لكي تسلّمني إياها أمام والدي وأخي، وتجلسون ثلاثتكم تراقبونني وأنا أموت خجلاً، قبل أن يرمقك والدي بمقتٍ ويقول لك: تأدّب يا ولد...

- كلا؛ هذا تصريحٌ بالحبّ في معرِض الخطاب، خرج دون قصد، أنا لا أؤمن بقضية الكلمة الواحدة، إضافةً إلى أنني يجب أن أُغضبك أولاً وإلا لن يكون الأمر ممتعاً

- لماذا لا تعترف فقط بأنك لا تملك لسانك وتقول ما في قلبك مباشرة؟ وأنك تخشى المواجهة المباشرة لأنك تخجل أيضاً.

- أعترف؟ هذا لأن حبّك ليس خطيئة، الخاتم في يدكِ يقول ذلك!

- حسناً حسناً؛ يائسةٌ منك أنا، ما شعورك بعد أن طوّق خاتمي إصبعك؟

- أخافك أكثر، أحبك بشكل أقلٍ!

- ها؟ كيف هذا؟

- قدّرتُ أنكِ بطرحك السؤال ذاته مرّتين تتوقّعين إجابةً مختلفةً في كل مرّة وإلا لما عاودت سؤالك (فكّرتُ: منطق النساء غريب!) أما كيف يكون هذا فتقضي النظرية المجتمعية بأن الحب يصل أوجه لحظة الزواج ثم يبدأ دونه النكد..

- وهل تؤمن حضرتك بهذا؟ لا شك أنك تفعل وإلا لما ذكرته..

- قبل هذا؛ ما رأيك بالحب؟

- الحب.. إما أن تسموَ به أو أن يهبطَ بك..

تسمو به كما فعلنا، يهبط بك كما يفعل بهما

وأشارت إلى عاشقين في إحدى الزوايا البعيدة

- ولكن أتعلم؟ أظن أن الرجال يقومون باستغلال الفتيات طوال الوقت، فنحن أشد طيبةً منكم ونحكّم قلوبنا أحياناً دون عقولنا، وهذا ما يجعلنا طريدةً سهلةً لكم..

- مهلاً؛ أتظنين حقاً أن الخير والشر قضيةٌ متعلّقةٌ بالجنس الذي خُلقتَ عليه؟! هذا لا يتوافق مع عدالة الله، لماذا يحاسبنا بنفس الطريقة إذا كان قد خلقنا بشكل مختلف؟ أنت تدركين تماماً كطالبة طب أن الاختلاف بين الجنسين غايته التكاثر بدرجةٍ

أولى، وأن موضوع الذكر والأنثى هو أمر طبيعيٌّ جداً، لا ميزةَ فيه، يحدث للقرود أيضاً!

كما أن الشيطان ليس عنصرياً! لن يُضيع فرصة إيقاع فتاةٍ في الخطيئة لأنها أنثى، ربما نحن أجرأ على المعصية علناً ولكنَكنَّ تمْتلكنَ ذات الجرأة إن بلغ بكنَّ الحب نِصابه، هذا يفسر لماذا تكاد تلك الفتاة تسقط في حضن صديقها بدل أن تصدَّ عنه، ألا تدركين أنها الآن تراهن على سمعتها وتعلم أنها تفعل ومع ذلك تتابع على أيّ حال؟

- وهو؛ ألا يراهن على سمعته كذلك؟

- كلاهما يفعل، ولكن يكفيه كرجلٍ أن يداوم الذهاب إلى المسجد ويربّي لحيته وأن يبتعد عنها بالضرورة وسيغفر له المجتمع خطيئته، أما هي فستلاحقها كلمات النساء ومجالس الغيبة إلى القبر

- أين العدالة في هذا؟ تفعلون ما تشاؤون لأنكم رجال؛ تكسرون قلوبهنّ ثم تدّعون الصلاح؛ أتدري كم مرةً رأيت فتياتٍ محطّماتٍ من وعود الرجال الفارغة؟ يأتينَ إليَّ عسى أن يجدْن في جعبة الرئيسة ما يُنقذهنّ، وما كان بوسعي أن أقدّم لهنّ إلا كلاماً ونصائحَ لا أكثر، تعطي الفتاة منا إذا أعطت كل ما لديها؛ ثم يأتي وغدٌ منكم ويتظاهر بأن حبها ليس كافياً ويهجرها ربما لأجل من هي أقلُّ منها، لك أن تتخيل فاجعتها الآن..

- الذنب ليس لأحدهما دون الآخر بل هو ذنبٌ مشترك، قد تظنّين أنّ المجتمع ليس عادلاً عندما يتعلّق الأمر بالمرأة، وقد يكون ذلك صحيحاً أحياناً، ولكنّ المرأة لبِنةُ أساسٍ فيه، مسؤولةٌ عن سمعةِ ثلاثة: الأول أوجدها في الحياة وهو والدها؛ والحفاظ

على سمعته برٌّ، والثاني يجعل منها أمّاً وهو زوجها؛ والحفاظ على عِرضه يُدخلها من أيِّ أبواب الجنة شاءت، والثالث من ستوجدهم هي في الحياة؛ أبناؤها؛ والحفاظ على سمعتهم يجعل الجنة تحت قدميها، وكما ترين فإن التشدّد في التعامل مع قضية المرأة يمكن أن يفسَّر غالباً بهذه الحقيقة: أنها بالحفاظ على نفسها تحافظ أيضاً على ثلاثة أصنافٍ من الرجال دفعةً واحدة، لذا لا ينبغي للمرأة أن تكون ملكَ مجتمع؛ صديقةَ الجميع وتسكن في قلب كل رجلٍ ساعة، بل ينبغي أن تكون سرَّ والدها الذي يفشيه لرجلٍ واحدٍ هو ذاك الذي سيكون زوجها

- ولكن لا يمكن لقاعدتك هذه أن تفسّر التفريق في الأجور مع القيام بنفس العمل، أو منعهنَّ من أشياء كثيرةٍ كقيادة السيارة مثلاً بحجّة أنهنّ نساءٌ فقط، فكما ترى لم نخلق أنفسنا نساءً بإرادتنا! أرايتَ في حياتك مذيعةً أو سكرتيرةً قبيحة؟ لمَ تلومون الأنثى على استثمار أنوثتها إن كان هو جلَّ ما تطلبون؟ لماذا تناقضون أنفسكم؟

- كلا؛ لا يمكنها أن تفسّر ذلك، فذلك ظلمٌ محض وتخلفٌ صارخ، ولكن؛ وبالعودة إلى الزوجين في تلك الزاوية؛ ألا ترين أن تلك الفتاة قد أهانت نفسها كما لا يمكن لأي رجل أن يفعل؟ ألا تعتقدين أن المرأة في عصرنا قد انتقصت من أنوثتها تماماً كما انتقص الرجل فيه من رجولته وربما أكثر؟ ولا أقصد بهذا المفاضلة بين خطأين؛ ولكن لم يكن أيٌّ من هذا ليحصل لو أنها لم تسمح به بدايةً، فقد كان الأمر بيدها؛ على أنّ تفاعل المرأة مع الرجل كلاماً أو حتى عملاً هو أمر عاديٌّ جداً ما دام في نطاق الحاجة وداخل إطار الأدب المتبادل مهما طال ذلك التفاعل أو

تكرر إن كان في كلِّ مرّةٍ مبرّراً ومحدّداً بفترة الكفاية، إلا أن الأدب والحاجة حينما يغادران أيَّ تفاعلٍ يربطهما معاً فإن النتيجة التي تتحصّل بذلك ستؤذي كليهما، والضرر عليها أشد لأنها تستثمر ذاتها في عينٍ ضيّقة، عيون الرجال ضيّقة.. عقول الرجال تغرق في التفاصيل إذا أُتيحت لها المقارنة، وهكذا ستخسر أي أنثى لوجود من هي أجمل منها دائماً، ألا ترينَ أن موضوع استثمار الفتاة لأنوثتها في غير مكانها جعلها أقرب إلى السلعة في نظر مثيلاتها فضلاً عن منظور الرجال؟ وأبعد من هذا أن النساء يقِسْنَ أنفسهن بناءً على ذائقة الرجل، ألا يختلف هذا مع حقيقة أن عليك أن تتقبّل نفسك كما هي قبل أن يقبلك من حولك؟

- أجل؛ تستطيع أن تقول هذا، ولكن الشاب فعل ذلك أيضاً، لقد انتقص من رجولته حتى تساوى مع الذكور في فصائل المملكة الحيوانية المختلفة، وربما تعترض أنت على استثمار الفتاة لمفاتنها في حضور الرجال؛ ولكنَّ ذلك بالفعل ما يؤمّن لها زوجاً، بل إن بعض الأمهات تُدربْنَ بناتهنَّ على ذلك، وإن كانت الأبوّة في الرجل فكرةً جميلةً فهي في الأنثى فطرة تسعى لإرضائها

- وأيُّ أنواع الشباب ستحظى به هذه؟ إنها تسعى إلى رجلٍ فقط، أيُّ رجل.. وقد يبدو ذلك الشاب وضيعاً لكِ؛ إنما في نظر الشباب من أمثاله يُعتبر فعله نصراً أو ربما رقماً آخر في قائمته المديدة، ويمكنك بالمثل أن تتوقعي أن تكون للفتاة قائمةٌ طويلة أيضاً، إدمان العلاقات السهلة! أتدرين ما حجم المعارضة التي قوبلتُ بها لما عرف الناس بأنني سأطلب يدك؟ أجمع الزملاء أن الحياة لا تزال أمامي ولا داعي لأن أكون جديّاً وأسوق على

مسامعهم أسطوانة المبادئ، أما عائلتي فرأت أن الأمر مبكّرٌ ولا يجب أن أتسرّع إذ إنني لا أُحسن الاختيار بعد؛ وما وقف في صفّي إلا والدي، وتكلّم كثيرون عن أنك لستِ ابنة بلدي أو أنك تكبرينني بعامٍ مع أن كلَينا صغيرُ السن، أن تكوني في الحادية والعشرين لا يجعلك عجوزاً! وانتشرت إشاعات هنا وهناك بأن فتاةً ضحكت على الولد ولحست عقله!

- يبدو أنك جاهدتَ حتى فعلتها! لم أكن أعرف ذلك؛ أشعر أنني قيّمةٌ بالنسبة لك!

- لا لا؛ لستِ قيّمةً أبداً! أنا أصلاً سأتزوجك لأني أحب فتاةً تُشبهك!

- ما أبغضك! هادم اللحظات الجميلة!

- على أيّ حال؛ لقد كان الشيء الصحيح لفعله، الشاهد أن المجتمع يطالب بالعفّة مع أنه يحاربها بالعادات والتقاليد والعقلية المتخلّفة، والحجّة اللاذعة دائماً أنك لست جديراً بالمسؤولية بعد؛ أو ليس بما يكفي لتتحمّل أعباء بيت، وينسَون أن وجود الآخر في حياة الشاب أو الفتاة ضرورةٌ وفطرةٌ لا بدَّ من تصريفها، وإن لم يتمّ ذلك بالحلال فسيحصل بالحرام، وبدل أن يُعدّوك لتتحمّل المسؤولية فإنهم يُعفوك منها!

- ربما يكون الحق في جانبهم؛ لا تنسَ موضوع النفقة، أعتقد أنّ أمراً كهذا كفيلٌ بأن ينهيَ أيَّ بادرة خطبة في مَهْدها، كيف ستنفق على بيتٍ وزوجةٍ وأنت لا تزال طالباً؟! كما أنني أعتقد كفتاةٍ أن الأنثى إذا لم تتربَّ على القناعة والرضى منذ صغرها فإنهما لن يُولدا فيها فجأةً، المجتمع النسائي مليءٌ بالمقارنات والغيرة والحسد، كم برأيك نسبة الفتيات التي يمتلكنَ مثل تلك

القناعة؟! كما أنك مطالبٌ كزوجٍ أن تقدّم لها ما كانت تحظى به في بيت والدها؛ هذا حقّها عليك، حتى وإن تنازلت هي فما الذي يجعلك تظنُّ أن أهلها سيفعلون؟

- أتفق معك؛ هذا حقّها، ومن حقّها أن ترفض أيَّ شابٍّ لا يوفر لها ذلك، لكن التنازل في مثل هذه الأمور لا يحطُّ من قيمة الفتاة، حقيقةُ أنها تتنازل عن شيءٍ من حقّها ليكون زواجهما ممكناً هو أمر يجعلها قِدّيسةَ في نظر رجُلها، أما الأهل فكلُّ ما استعصى بالضغط يلين؛ وأنا أؤمن تماماً أن كلّاً منّا إن أراد شيئاً فبإمكانه أن يختلق ألف طريقةٍ ليجعله ممكناً، ربما يبحث عن وظيفةٍ أو يطلب من والده أن يساعده في مشروعٍ ما، أيّاً كان ما سيفعله فعليها أن تقدّر ما يبذله ليكون معها، لا أقول بأن الأمر سيكون سهلاً؛ كل ما أقوله أنه ممكن، وأن صعوبة السعي يتبعها لذّة الرضا، وأن الله مع من قَصَده، لكن عليها ألا تتنازل كثيراً وأن تبقيَ الأمر في حدوده المعقولة؛ هذا زفافها وكل فتاةٍ تراه يوماً حالماً وترسم في خيالها أدقّ جزئياته..

- لطالما آمنتُ أن الزواج طريقةٌ للحياة وليس غايةً فيها، وما هو بقرينٍ للسعادة والعظمة بالضرورة، كل ما في الأمر أن بأس الحياة قد اجتمع فيما بينكما ثم انقسم عليكما من جديد، كأنه توحّدٌ جميلٌ مقدّسٌ في مواجهة عقباتٍ ربما تقضي عليك لو كنت وحدك، توفر لها الأمان فتوفّر لك الحنان والطمأنينة، تبادلٌ للمنفعة والعاطفة دونما حساب، وهو أيضاً نتيجةٌ حتميةً لاختلافنا بين ذكر وأنثى من ناحية، وبين روحٍ وروحٍ من ناحية، أحياناً أرى فيك تعويضاً إلهياً عن الفراغ المكتسب من غياب والدتي؛ لو أنها بيننا لأحبّتك! لا شيء في هذه الحياة أجمل للفتاة من أن

تصبح أمّاً، أعتقد أن الأم هي القيمة المثلى التي لا يستطيع أن يصل إليها أيُّ رجل..

- رحمها الله، تعيش من خلالك يا صغيرة..

- رحمها الله؛ اعتادت أن تقول: إذا أردت أن تكون شيئاً ما فبإمكاننا دائماً أن نغير الظروف لأجلك أو نخلق ظروفاً جديدة لنجعل ما تريده ممكناً، هذه وظيفتنا كعائلة، أما إذا لم تُرد عميقاً في داخلك فليس بوسعنا أن نغيّرك؛ إنه أنت وما أنت عليه..

- لا يزال ابن آدم يخوض صراعه القديم بين ما يريده وبين ما يجب عليه أن يفعله..

- هناك أمرٌ أودُّ سؤالك عنه منذ مدّة، كما يبدو من كلامك فأنت لا تحب قليلات الدين وتُنقص من قدر اللواتي يلبسن لباساً غير محتشم؛ كما أن موضوع استثمار الأنثى لأنوثتها في حضرة الرجل يثير حفيظتك بشكلٍ خاص، إذا كنتَ كذلك فلماذا اخترتني وأنا حديثة عهدٍ بالتزام؟ لماذا لم تختر فتاةً تلائم فكرتك المُثلى عن النساء؟ لا بد أنه قد خطر ببالك أن يغلبني طبعي القديم وأعود لسابق عهدي؛ بصراحةٍ أنا لست مرتاحةً لفكرة أن أفقدك عندما أفقد نفسي ولا أجدك بجواري لتأخذ بيدي أو تأخذ عليها، أنا لم أكن دائماً هكذا.

- لا تتكلّمي عن نفسكِ هكذا مرّةً أخرى، أتفهمين؟!

زواجي منكِ ليس تنازلاً مني، في كلٍ منا ما يُنقصه..

أريد منك أن تنظري للأمر من هذه الزاوية؛ أنّ نزعة الهوى في كلٍّ منا هي نزعةٌ طارئة؛ نداءٌ متأصّلٌ في كلٍّ منا لأن يضلَّ طريقه ويُخطئ قبل أن يعود إلى طريقه مرّةً أخرى، شيء كالجاهلية والإسلام، كل خطأ بعد الإسلام هو نزعةٌ جاهلية، ألم

يقل الرسول – صلّى الله عليه وسلّم –: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن.. "، كأن الواحد منّا ينسلخ من إيمانه لحظة الخطأ ولكنه يعود إليه تماماً بعد أن تنتهي معصيته، العاصي لربّه هو أعلم الناس بمعصيته، وإذا كان الإسلام في صدره قد شرح صدره لكل من أتوه من جاهلية: لأولئك الذين يشربون الخمر ويأكلون الميتة ويئِدون بناتهم ويطوفون عراةً بالبيت.. أتظنين أن أحداً منهم كان ليدخل الإسلام لو أن الإسلام اشترط فيه مواصفات معينة؟! الإسلام ولادة، التوبة ولادة، أنتِ صنعة الله، وصنعة الله كاملة.. لا تُنقصي من قدر نفسك وأنت في الطريق السويّ كيلا يُنقص الشامتون من قدرك؛ ولا تعيدي طرح هذا الموضوع مرّة أخرى، هذا أمر..

- أعتذر؛ أحياناً أحس أنك تعرفني أكثر مما يجب..

- أعرفكِ كما يجب، ولكن لا بأس؛ ألقي كلَّ ما يثقل صدرك؛ لا تدعي الظنون تعبث برأسك؛ لا شيء ستقولينه سيجعلني أتخلى عنك..

- إذاً إليك السؤال الذي سألتنيه قبل قليل: ما رأيك بالحب؟ أعني كفكرة رجلٍ لا كفكرة عامة.

- الرجال في معاني قلوبهم خمسة: أولهم لا يبتدئ شيئاً لا يستطيع أن يُنهيَه؛ ولقلب هذا من عقله نصيب، والثاني لا يبتدئ شيئاً حتى لو استطاع أن ينهيه لأنه محكوم بمبدأ الحلال والحرام؛ وهذا خاف الله في الفتاة قبل أن يعرفها، فإن هو عرفها فأعجبته قصد والدها، والثالث يبتدئ شيئاً لا يستطيع أن ينهيه؛ فينسحب.. وهذا جبان لا يستحق أن تنظر إليه أي امرأة، وآخرُ يبتدئ من

حيث وصل في الحب غيره، وهذا ليس إلا تاجراً من النوع الرخيص، والأخير يبدأ من حيث ينتهي، وهذا لا يعرف عن الحب أكثر من كونه أجساداً تُفرغ شهواتها في بعضها..

- وأين تضع نفسك في تصنيفك هذا؟

- أظن أنني كنت من النوع الأول إلى أن قابلتك؛ ثم إنني انتقلت إلى النوع الثاني، حقيقةً؛ لم أكن أفكّر بالزواج خلال الدراسة، إلا انني لما عرفتُك خشيتُ أن أضيّعك ولا أجد من بعدك من هي مثلك..

ابتسمت بخجلٍ يشي بالنصر ثم قالت بغرور:

- خشيةً لا رغبة، وأنا التي كنت أظن أنني سلبتك عقلك، يبدو أنك كنت خائفاً لا أكثر!

- لنقل إن التفكير بك مُرهقٌ يا صغيرة، ثم إنني لم أكن لأسمح للشيطان بالدخول بيننا، كما أن الامتيازات التي عرضتها في رسالتك كان مغريةً أيضاً، أتذكرين " وأتمنى أن تندم لبقية حياتك إذا لم تجعلني زوجةً لك "

- أين الامتيازات تحديداً؟ كان هذا تهديداً، وعداً بالندم!

- لنرى؛ كان من المفترض أن تقولي "زوجتك" لا "زوجةً لك" فأنت بذلك جعلتِ نفسك نكرةً وفتحتِ لي مجالاً للتعدد!

- كفاكَ فلسفةً؛ وكأنك تجرؤ! من أين لك بمثلي؟!

- النساء تملأ الكوكب كما تعلمين..

- يا إلهي! إنها تمطر نساءً في الخارج، فقط أمسك مظلّتك بشكلٍ مقلوب وستسقط في حبك إحداهنّ، وستسقط من عينك كثيرات؛ يبدو أنك لا تحتاجني..

فتحتْ مظلّتها وقلّبتها ثم وضعَتها في يدي، وهمّت أن تغادر، استوقفتها:

- تبدين أجمل عندما تفقدين السيطرة، هل عليَّ أن أعتذر؟

توقفت قليلاً ثم التفتت: وتسأل أيضاً! لا عليك؛ لن يُفلح هذا، جرّب شيئاً آخر..

- لقد كتبتُ لك شيئاً البارحة؛ أيفلح؟

- ربما؛ أرِني أنظر إليه..

- مهلاً؛ عديني أولاً أن لا تلبسي نظارتك البغيضة أمامي، افعلي ما تشائين بنفسك لكن ابتعدي عن منطقة العينين، تلك نافذتي الصغيرة يا حُلوة..

- حسنـ... حسناً!!

- أتعلمين؟ لو كان لي أن أتمنّى شيئاً لتمنّيتُ زوجين من العيون الإضافية، إحداها ليراقب تدفّق الأفكار إلى رأسي وأنا نائم، والآخر سأهديه لكِ؛ كي لا تحتاجي نظارةً بعد ذلك!

- أتدري أنك غريب؟ وأن فلسفتك غريبة؟ وأنني أحياناً لا أفهمك؟ وأن طلباتك غير منطقيةٍ أبداً؟ وأني أحبُّ فيك كل ذلك؟

وكما يحصل في اتفاقيات السلام الكاذبة نزع كل منا سلاحه وألقاه في أرض صاحبه، كان مما اتفق عليه العشاق الأوّلون أنه لا سلامَ في الحب، فالحب حربٌ لا تهدأ، وما أن تمّت اتفاقية الحب مقابل الكلام حتى قالت:

- ما كل هذا؟ كل هذا من أجلي!

- كفاكِ غروراً يا امرأة!

وأردتُ أن أتفوّه بالمزيد إلا أنها انسحبت هي وصديقتها إذ ظهرت تلك الأخيرة من العدم لتهدم قدسيّة الموقف وتستخلص

فتاتي لنفسها، ومرّت فترة انسحابهما بطيئةً جداً؛ وربما أبطأ، قضيتها أراقب الصليب يتأرجح على صدر فتاة الظل، أسميها بذلك لأنها تمشي مع سراب مثل ظلها، من الغريب أن يكون للسراب ظل!

4

عودي لأمكِ طفلتـــي من حضن أمك لا مفـر
قولي لها جاء الخريـ ـفُ وعاد للأقصى عمر
رثُّ الحنـايـا ثوبُـــه صنع الزمان به العبـر
والغيــب خـطَّ بغِمْـده حُكْمَ الغياب على القمــر
قُم يـا بلال وأذّنِـــنْ رَجل المرقّـعـة انتـصر

كلية الطب: مجلة أكسجين، العدد السادس والعشرون
- كاتب مجهول

5

فتاة الظل؛ جود، خطيبة ورد قبل أن يدخل غيبوبته وخطيبة غيره بعد أن أفاق، قام أهلها بفضّ خطبتهما بعد ستّة أشهرٍ من غياب ورد عن وعيه، وكما يبدو فالأمر لم يُضايق أهلها أو أهله، مع أنهما جيرانٌ منذ الأزل قبل النزوح وبعده، ومع أن أصولهما تلتقي في جذور العائلتين، إلا أن فكرة الزواج من ديانةٍ مختلفةٍ أرّقت كلا الجانبين قبل أن يُضطرّا أن يوافقا نزولاً عند رغبات

ابنيهما؛ أو كما يصِحُّ أن نصِف ما حدث فعلاً: نزولاً على الضغوطات المُمارسة عليهما من رأس القبيلة نزولاً إلى قاعها، فكما يبدو.. للقبيلة كلمةٌ فوق الدين والرغبة الشخصية

يكبُرها بثلاثة أعوام، صديقان منذ الطفولة، يعرفها كما لا يعرف أحدٌ صديقه، ترعرعا معاً في جارة الساحل الحزين وكبرا هناك جنباً إلى جنب، التحق ورد بكلية الهندسة وأنهى دراسته فيها بينما التحقت هي بكلية الاقتصاد، وقطعت دراستها مع بداية الأحداث التي ضربت المدينة واضطرت أهلها إلى النزوح جنوباً..

لا زلتُ أتذكّر المرّة الأولى التي خرج فيها اسم جود إلى مساحة الكلام المُباح؛ حدث ذلك بعد أن استيقظ ورد بأسبوعين، كنا نجلس معاً في غرفة الضيوف في آخر زيارة لوالدي قبل أن يسافر، كان والد سراب متفائلاً بهذا الزواج خيراً، فكما أشار يومَها أن حادثة استيقاظ ابنه قد ردّت الروح إلى حنايا البيت، أمورٌ كهذه لا تحدث صدفةً، لا بدَّ أن نسَبَنا فاتحة خيرٍ عليهم، هذا ما يعتقده، أما أنا فاعتقدتُ ذلك لأجله، لم أكن أؤمن بتلك الأشياء، ولكن أيُّ شيءٍ يحسّن علاقتي بهذا الرجل مرحّبٌ به!

ودخل ورد ليسلم علينا، بدا بارداً بعض الشيء من ناحيتي، ربما كان هكذا مع الجميع، ثم قال كلمةً واحدة موجّهاً كلامه إلى أخته: جود..

وخيّم على إثرها صمت مقبرة، لم يكن أحدٌ قد أخبره، ليس فقط أنها لم تعد له؛ بل أنها أصبحت لغيره.. بدت الإجابة واضحةً في وجوهنا، وبدا أنه يحاول أن يركّب الكلمات ليتابع سؤاله، همَّ

والدي أن يستأذن ليترك الأسرة تخوض في شؤونها إلا أن والد سراب استوقفه قائلاً: "لا بأس؛ نحن الآن عائلة".

وقصَّ على ابنه ما حدث في غيبوبته، والذي لم يتوقّعه أيٌّ منّا أنه ابتلع الحقيقةَ كاملةً دون أن يخضلَّ جفنه، كأنه يستمع إلى أبرز العناوين في نشرة أخبار الحياة التي فاتته..

أنهينا الزيارة سريعاً، سافر والدي بعدها بأيام، أوصاني على غير العادة بالفتى لا بأخته، شيءٌ ما منه قد علِق بنا، أحياناً يُخيَّل إليَّ أن بقاءه نائماً كان خيراً له، لا نفسَ تطيق الفقد مُفرداً فكيف به إن كان مضاعفاً، أمه وخطيبته، بيته ومدينته، جسده الضعيف وصوته الأجش، والأشد مرارةً من كل هذا نظرات الإشفاق التي تلاحقه، وكأن البؤس الذي اختاره قد أخطأهم لأنهم خير منه، ربما أفضل ما حدث له أن قد عُرّيت وجوه الزائفين أمامه، فما عليه سوى أن يقرأ خبايا نفوسهم في عيونهم ويحكم عليهم بحكمهم عليه.

6

نائماً في المحاضرة؛ لم تتوقّف دكتورة وظائف الأعضاء عن الحديث منذ ساعتين، ولا يزال أمامنا ساعتان أُخريان، وهذا الجدول المزدحم هو نتيجةٌ غير مباشرة لغياب الدولة وفقد الأمن في الجنوب، حيث فرَّ المدرّسون منذ عامٍ تقريباً، ما أدّى إلى أن تتّخذ الجامعة قراراً بإحضار مدرّسين من مدنٍ أخرى لفتراتٍ وجيزةٍ لا تتجاوز الأسبوعين، يتم فيها حشوُ المقرّر كاملاً في رأس الطالب على دفعتين أو ثلاثة..

كان الكلام يومَها عن الهرمونات التي تعمل أيضاً كناقلاتٍ عصبيةٍ، ووصل بنا الكلام (وصل بها وحدها حقيقةً..) إلى "Serotonin"؛ هرمون السعادة، تلك المادة الكيميائية التي تُفرز في جسد المواطن العربيّ مباشرةً بعد موته! كانت الدكتورة بغيضةً جداً؛ عدا عن أنها لم تعطِ أي استراحةٍ خلال الساعتين الماضيتين؛ فقد أفصحت عن نيّتها في عدم إعطائها فيما تبقى من عمر المحاضرة، يجب أن يتمَّ هذا الموضوع اليوم، والمثير للحنق أنها تكاد تسبق نفسها فلا تتركَكَ تفهم ما تقوله ولا تتركك تنام بسلام..

السيء حقاً في الكلية هذه الأيام هو نظرة أصدقائك لك بعد أن خطبت، الأسوأ منها نظرتهم إليكما معاً، بين إعجابٍ بما فعلتماه إلى إنكارٍ أو ربما حسد، على أنكما لم تفعلا شيئاً يستحق هذه الغبطة فالبشر يفعلونه منذ الأزل، إلا أن التعليقات والنكات تلاحقك من لسانٍ للسانٍ ومن نظرةٍ لأختها، إن الأعراب قومٌ غريبون حقاً! لماذا لا يجلدون بألسنتهم زوّار الزوايا المخبّأة وسكّان مملكة الثياب الضيّقة؟ الحقيقة أنهم يجلدون الجميع؛ الجميع بلا استثناء..

لم تعد دفعتنا كما اعتادت أن تكون؛ ثمّة تناقصٌ كبيرٌ في أعداد الطلبة بين نزوحٍ وتهجيرٍ وموت.. الكثير الكثير من الموت، وقد يبدو الأمر غريباً بعض الشيء؛ فلم يكن الموت دائماً من النوع الذي يرافق الفتنة عادةً؛ أي القتل والحرابة، أحياناً كان الناس يقضون بفعل حوادثَ غريبة، وكأن الموت لا يحلُّ بطيفٍ واحدٍ بل يلقي بأطيافه كلّها دفعةً واحدة، كان فراس آخر الموتى بيننا؛ خرج ذات مساءٍ مع أصدقائه ليخيّموا في الصحراء، وفي

منتصف تلك الليلة جلسوا يتسامرون قبل أن يقرّر أحدٌ ما في الخيمة المجاورة أن يطلق رصاصةً في التراب؛ هذا النوع الغريب من البلاهة ينتشر مع انتشار السلاح في الأيادي الخاطئة، ولأن أرض الصحراء ليّنةٌ فقد غاصت الرصاصة في الرمال متّخذةً مساراً مقوّساً بعد أن اصطدمت بجسمٍ صلب وخرجت من الأرض لتنتهي في نحر فراس، وبتلك البساطة الغريبة مات الرجل...

هناك أيضاً إيمان ولبنى وفاطمة، محمد وعز الدين ومهند، وهؤلاء ماتوا قبل أن أعرفهم عَياناً، حدث ذلك خلال العام الأول في الجامعة، لم أمتلك الكثير من المعارف وقتَها، ومات بعدها كثيرون غيرهم من كلّيتنا وباقي الكليّات..

وربما كان للفتنة جانبٌ أقل سوءاً من غيره؛ إذ توقّفت الجامعة عن محاسبة الطلبة على الحضور والغياب لتعذّر الوصول إلى الجامعة على كثيرٍ منهم؛ خصوصاً سكان القرى، ولذلك السبب كنت أزور الجامعةَ موسميّاً؛ لأتفقّد أصدقائي بشكل أساسيٍّ وربما حضرنا محاضرةً أو بعضاً منها في السياق!

ربما كان وضع البلاد سيئاً جداً؛ إلا أننا كنا نستغلّه أسوأ استغلال.. كنا نضع جدول الامتحانات التي نريد؛ بالترتيب الذي يعجبنا، ونختار كذلك نمط الأسئلة وعددها، وإن لم يتمَّ ذلك برضا الدكتور فسيتمُّ تحت تهديد السلاح، ما أدى إلى نشوء ظاهرة الجداول المؤجّلة؛ حيث يتمُّ تأجيل الامتحانات لمدةٍ قد تصل الشهرَ أحياناً بما يوافق مزاج الطلبة، أذكر أنهم أجّلوا الامتحان مرّة ليتمكّنوا من مشاهدة "الكلاسيكو"!

وكانت سراب تعاني الأمرّين مع الطلبة من مختلَف السنوات من جهة؛ ومع إدارة الجامعة من جهة، واقعةً بين شِقّيْ الرّحى، ومع اطّراد عدد التأجيلات المبرّرة بأزمات البلاد المتلاحقة وتلك التي فعلوها موافقةً لأهوائهم - تمدّدت السنة الدراسية الواحدة لتشمل اثنتين، أي أنك تنهي مقرّر العام في عامين، ما أدّى إلى نشوء أزمة لدى طلبة الثانوية الجدد الذين كانوا يصلون إلى الجامعة ليجدوا الطلاب الذين سبقوهم بعامٍ لا يزالون في منتصف الدراسة، وعليهم لذلك أن ينتظروهم حتى يفرغوا ليباشروا دراستهم..

ونشأت الفوضى في المعاملات الورقيّة أيضاً، إذ أدّى وجود حكومتين في البلاد إلى اختلاف الأوراق الصادرة عن كلِّ حكومة، ما جعل الانتقال من المدن الخاضعة لسيطرة إحدى الحكومتين إلى تلك الخاضعة للأخرى أمراً مُربكاً، والتحويل بين الجامعات والمؤسسات والمدارس يكاد يكون مستحيلاً، الكارثة الحقيقة كانت أن المصرف المركزيَّ للدولة كان يصرف المستحقّات للوزراء في الحكومتين، لوزيرَي تعليمٍ ووزيرَي اقتصادٍ ورئيسَي وزراء..

استدعتني سراب بعد انتهاء المحاضرة إلى مبنى الاتحاد؛ أراهن أنها تستمتع بممارسة سلطتها عليّ أنا تحديداً! طلبت مني أن أستلم عنها تحرير مجلة الكلية، إذ كانت منشغلةً كما يبدو بشيءٍ ما مع الإدارة..

مجلة أكسجين، جاء الاسم كاستعارةٍ جميلةٍ للمجلة التي سيتنفّس من خلالها الطلبة، على أي حال؛ بدا هذا الاسم مستهجناً بعد أن أصبحت منشورات النعي فيها تفوق موضوعاتها

الأساسية، زد على أن القرّاء لم يتجاوزوا الخمسين في أفضل إصدارات المجلة؛ ولأنني منعزلٌ بطبيعتي عن المجتمع الجامعيّ لم أستطع أن أفهم ما يجذب اهتمامهم، بدا أن موضوعات الحب بشكلٍ خاص تجذب الكثير من القرّاء؛ معظم الشباب يعاني جفافاً في تلك الناحية، ولا يمكنك أن تسقيَها بالكلمات إلى الأبد..

الفصل الرابع

المدينة الآثمة

1

شيءٌ لتفكّر فيه وأنتَ ترتجف في فراشك: شخصٌ ما بيننا قد سمع إطلاق "الهاون" وكان صوت سقوطه آخرَ ما سمعه، ولا يتطلّب الأمر أكثر من تعديل زاوية الإطلاق ليكون ذلك الشخص أنت..

تتوقّف الشمعة عن الاحتراق قليلاً قبل أن تتابع ذبولها، لا كهرباءَ هذا المساء أيضاً، هل قاموا بقطعها عمداً ليجبروا المتقاتلين على الاستكانة؟ ربما سبقتهم لذلك القذائف، من يدري؟! بدأ الأمر في ذكرى الثورة، قام مناهضوها بإطلاق قذيفةٍ على أنصارها المحتفلين في الشوارع والساحات، ولم يتمّ حسم الأمر حتى الآن..

على الأقل فأنا مطمئنّةٌ على ورد؛ إذ غادر إلى المشفى ليراجع طبيبه وهو عالِقٌ هناك منذ مساء الأمس، كان خطيبي قد دعاه قبل أيامٍ إلى منزله ليمكث معه بعد أن سافر والده، ووافق على مضض، ثم أصبحا يقضيان كثيراً من الوقت معاً؛ أكثر مما يقضيه أيٌّ منهما معي، ما الذي يفعله الشبّان في أوقات فراغهم؟

سألتهما مرةً عمّا يفعلانه فأجابا أنهما يتكلّمان عني معظم الوقت.. إجابة استفزازية متوقّعةٌ للحفاظ على خصوصيّة المجتمع الذكوريّ، الجيّد في الأمر أن الشقّة التي يمكثان فيها داخل حرم المشفى، إذ كان والد خطيبي يعمل هناك؛ وللمشفى كتيبةٌ تحرسه، أمرٌ كهذا نادر الحدوث في ظلِّ غياب الجيش والشرطة..

البارحةَ خضنا أول عراكٍ لنا، ليس الأمر أن الخلافات بين الأزواج أمرٌ لم أتوقّعه؛ إلا أنني لم أرَها قادمةً بتلك السرعة، الرجال كائناتٌ بغيضة؛ أعرف هذا الآن، نحن أيضاً كائناتٌ بغيضة أحياناً، لقد فطرتُ قدميه في السوق يومَ اخترنا خواتم الخطبة، ثم عدتُ به إلى أول متجرٍ دخلناه لنأخذ أول شيء أعجبنا، الحقيقة أنه أعجبني وحدي؛ لم يبدُ أنه مهتمٌّ بتلك الأشياء، "قيمة الزواج لا يمكن اختزالها في قطعتين معدنيّتين" قالها وهو يرتاح على مقعد السيارة بعد دورةٍ دامت سبع ساعاتٍ في السوق..

لكي تكون سعيداً عليك أن تمتلك أسباب السعادة، وعليك قبل ذلك أن تتعلّم كيف تقدّر ما لديك.. وكان لدينا الكثير لنتقاسمه، قلبانا وأحلامنا وبيتٌ صغيرٌ نربّي فيه أطفالنا، أحلامٌ بسيطةٌ لكن لذيذة، هل أنا ساذجةٌ إن طلبتُ منه أن يكفَّ عن إهدار حياته؟ لم أقصد أن أكون متسلّطةً ولكنني أهتم به، أهتم كثيراً؛ ولأنّني أهتمّ فلا أملك إلا أن أتدخّل في شؤونه، حتى لو أزعجه الأمر وأفقده صوابَه، أدري أنني قابلته منذ عامٍ فقط ولا أستطيع هكذا أن أغيّر فكرةً ضربت جذورَها في فكره سنواتٍ عديدةً قبل ذلك، ولكن كما أن الحب تملّكٌ متبادل، فهو أيضاً تنازلٌ متبادل، ولا طاقةَ لي بمزيدٍ من الفقد، يا الله.. ألطفْ بنا وألّف بيننا على محبّتك..

يعلو صوت الاشتباك حيناً ويخفتُ حيناً.. تختفي الشمعة تماماً في أصلها، تئِد ضوءَها في السائل الذي خُلقت منه وبذاتها تختنق، كم تشبه البشر!

يخيّم الظلام ثقيلاً على أطراف الغرفة، تتأقلم عيناك سريعاً عليه، يتوافق المشهد مع أصوات الانفجارات، تتناغم الأصوات مع الضجيج في رأسك، وتبقى فكرةٌ وحيدةٌ تسيطر عليك: ماذا لو كانت هذه لحظتَك الأخيرة؟

ولأنها كانت تحبّه، ولأنها لم تكن تملك من أمر قلبها شيئاً، ولأنها اعتادت أن تفقد من تحبّهم حتى بدا لها أنه يجب عليها أن تفقدهم، لأجل هذا كله دفنت وجهها في وسادتها وبكت حتى أسلمتها حسرتها إلى النوم..

2

قلّب أوراقي بين يديه وراح يقرأ صامتاً؛ يقطع صمته بين الفينة والأخرى بتنهّداتٍ عميقةٍ ونظراتٍ متفاجئة، حاولتُ ألا أكترث لنظراته وثبتُّ نظري على الطريق

- ربما كان يجدر بنا أن نخبر أحداً بوجهتنا من باب الاحتياط فقط؛ قد يزور أحدٌ البيت ويدرك أننا غادرناه

- لقد فعلت؛ أخبرتُ صديقاً لي أن يهاتف والدي إن لم يتلقّ منا اتصالاً قبل المساء؛ آسف لإقحامك في هذا..

- لا عليك؛ أودّ أن أرى جارة الساحل الحزين أيضاً، لماذا لم تخبر والدك؟

- الأهل يخافون؛ ربما يبدو لك والدي صلباً متماسكاً لكنه يختلف كثيراً عن الرجل الذي اعتاد أن يكونه؛ تطلب الأمر مني فترةٌ طويلة بعد استيقاظي لأتقبّل نسخته الجديدة، لقد أصبح هشّاً للغاية، لم أتصوّر أن موت والدتي سيؤثر فيه لتلك الدرجة..

وأنت؛ لماذا لم تخبر والدك؟

- ذات السبب؛ الخوف من وضع البلاد، والحقيقة أنني لا أرى أنّ ما نفعله صحيح، إنه تهوّرٌ غير مبرّر؛ وأظنّك ترى حجم المخاطرة، كل ما في الأمر أننا نفعل ما نريد لأننا نريده لا أكثر، وآباؤنا لن يفهموا فعلاً كهذا لا منطقَ فيه، ونحن لا حجّة لدينا؛ لذا خيرٌ لهم ألا يعلموا..

- بما أنك ذكرتَ هذا فوالدي منزعجٌ بشأن أفكارك عن الثورة والنظام البائد..

- أعلم.. لقد أبدى ذلك لي مرّات عديدة، لا أدري لماذا يجب أن نحصر مصيرَ الملايين في هذه الأمّة بين خيارَين اثنين، إن كان الحقُّ في أحداهما فلماذا لم يظهر حتى اللحظة؟

- لا شأن لي بما تقول، أنا أكره كليهما ولا أرى بدّاً من أن أكره الثوّار أكثر، بحماقتهم خسرتُ والدتي وبيتي وصرتُ لاجئاً..

-...

- هذه الأوراق.. أنت لا تفكّر حقاً في نشرها؛ أليس كذلك؟

- ولماذا لا أفعل؟

- سينتهي بك الأمر مقتولاً..

- لا تبالغ كثيراً؛ فنحن بالأساس أمةٌ لا تقرأ! أين هي الحرية التي قاموا بالثورة في سبيلها إذاً؟

- أجل قاموا في سبيل الحرية؛ ولم يصلوا إليها، فابتكروا شيئاً يشبهها؛ شيئاً يشبه الحرية، وشيءٌ مثل هذا ليس لديه مشكلةٌ في التخلص منك؛ تذكر أنك مغتربٌ في هذه البلدة، ثم إنني أنا ابن هذه البلاد ولم أسلم منها، من تظن نفسك؟!

- أعلم هذا جيداً؛ أعلم أن المغترب لا يتساوى في تقدير حياته مع مَن سواه، ولكن أن ينظروا إليّ كأنني دونَهم لا يعني أن أعتبر نفسي كذلك، في قلب كل شاعرٍ نزعةٌ لأن يتم الاعتراف به..

- لن يعترفوا بك حياً ولن يفعلوها وأنت ميْت! ثِقْ أن القتل الذي يطبّقه القضاء إذا دعت إليه الحاجة يطبّقه هؤلاء بالعرف إذا دعت إليه رغبة.. انسَ موضوع النشر؛ ألا يكفيك أنها أعجبتني؟

- من تظن نفسك؟! من الأفضل ألا تقرأها سراب..

- لا تزال غاضبةً منك؛ لقد تركتها في البيت تتكلم مع نفسها، ما الذي حصل بينكما؟

- بدأت القصة عندما نفضت قصائدي القديمة وأخرجت من بينها قصيدةً عنوانها " في بلاط سيدة الورق "، فألقتها بين يديَّ وسألتني: " من المقصودة في هذه أيها الوغد؟ "

- قالت لك أيها الوغد!

- لم تقل بالطبع؛ أختبر ردّة فعلك، لماذا تبدو مسروراً هكذا أيها الوغد؟

- لا.. لا شيء، وماذا حصل بعد ذلك؟

- بقيتُ أختبر جنونَ أختك حتى فقدت صوابها؛ ثم أخبرتها من هي "سيدة الورق"؛ لقد كنت أقصد بها مسقط رأسي؛ حيفا..

- لا يبدو أن الأمور سارت على ما يرام، لماذا لا تزال غاضبةً منك حتى الآن؟

- بعد أن اتّضحت لها الأمور طلبت مني أن أخبرها عن مدينتي؛ أخبرتها الكثيرَ عنها؛ أخبرتها أيضاً أنني أحلم منذ صغري أن أحرّرها؛ أو على الأقل أن أموت وأنا أحاول.. وفقدت صوابها من جديد؛ قالت بأنني لا أُقدّرها، وأنه ليس في وُسعها أن تخسر المزيد ممن تحبهم؛ وأخذت تبكي..

- قلتَ لها أنك تريد أن تموت؛ تحديداً أنك تحلم بالموت! يمكنني كشابٍّ فقد مدينته أن أفهمك؛ لكن لا يمكنني مساعدتك، فأنا أخاف منها أيضاً!

- أنت تعلم من الوغد بيننا الآن! على أي حال؛ هل تتكلم دائماً مع نفسها؟

- فقط عندما تغضب، لماذا تسمّيها "سراب"؟

- اسألها بنفسك؛ هي التي اختارت الاسم، واسألها أيضاً عن الموقف الذي اقترحت فيه الاسم عليّ؛ أعتقد أنك ستبصر وجهَ أختك كما لم تُبصره من قبل! ثم إنك لا تتوقّع مني أن أصرح باسمِ امرأةٍ أحبّها لمجتمعٍ مريضٍ كهذا...

وساد صمتٌ مطبِقٌ مع كلماتي الأخيرة "امرأةٍ أحبّها"، ركّزت ناظري على الطريق متجاهلاً التوتّر الذي نشأ لحظتها وبدأت أخفف السرعة، ثمّة بوابة أمنيةٌ عند مدخل المدينة، كانت تلك البوابةَ الأمنية التاسعة التي نعبرها منذ غادرنا المدينة الآثمة قبل أربع ساعات، وكما كان واضحاً فإن كل فصيلٍ يُدير إحدى البوابات دون تنسيقٍ مع الأخرى، أحياناً كانوا يسألوننا عمّا فعلوه معنا في البوّابات السابقة، وأحياناً كانوا يسمحون لنا بالعبور دون

أن يفتّشوا العربة أو يسألوا أسئلتهم المعتادة عن الوجهة والحمولة وما إلى ذلك؛ امتيازٌ كهذا تحصّلنا عليه من اسم عائلة ورد ذائع الصيت ومن شهرة والده في تلك المنطقة، إلا أن الأمر كان يسير أحياناً أخرى بشكلٍ مخالف، فوالد ورد وعائلته ليسا محبوبين لدى الكل، أوقفتنا إحدى البوابات نصف ساعةٍ وطلبوا منا الترجّل، أخذوا هواتفنا ونقودنا وهوياتنا وأدخلونا إلى غرفةٍ فارغة تماماً، كانت الغرفة أشبه ببيت قذارة في زاوية مخبأةٍ خارج المدن، سدّت رائحة البول النفّاذة أنوفنا وكادت أن تُفقدنا حاسّة الشم بشكل كامل، أسمعونا شتائمَ نعرفها جيّداً لرموزٍ معروفةٍ في النظام السابق؛ ولأنني مع ورد فأنا كذلك مع انتمائه أيَّاً كان، وما أخلوا سبيلنا إلا بعد أن وقع في أيديهم تقريرٌ طبّيٌ كنا قد أعددناه مُسبقاً لهذا الغرض، أنا أنقل مريضاً للعلاج؛ وتكفّلت مِشية ورد العرجاء وكلماته المقطّعة بما تبقّى من المشكلة، وقبل أن يدعونا وشأننا أدخلوا بعض المهاجرين غير الشرعيين أمامنا وضربوهم وسلبوهم أموالهم وهواتفهم، ثم أسمعونا جرعةً لا بأس بها من الشتائم وتركونا نغادر، بدا أسوأ ما قد يحدث لنا بعد ذلك أن نجدهم ذاتهم في طريق العودة..

عبرنا إلى داخل المدينة مع وقت الظهيرة، لم أدرك معنى قصّة سراب عن المدينة إلا بعد أن أبصرتها، بدا ورد غارقاً في أفكاره؛ كانت تلك البوابة له ممراً بين زمنين مختلفين...

3

قلتُ أهكذا وطنك؟

قال كأنه هو..

مدينة مدمّرةٌ إلا من بعض المباني، من الواضح أن حروباً قد قامت بعد أن غادرت سراب وعائلتها المدينة، وسرعان ما تلاشت دهشتي أمام دهشة ورد، بدا واضحاً أنه يقارن المدينة التي عاش وترعرع فيها بكومة الحطام التي نقف عليها، تجوّلنا بالسيارة قليلاً من طريقٍ لآخر، الحطام في كل مكان، بعض البيوت لا تزال مأهولةً على أطراف المدينة، والعدد يتناقص تدريجياً كلما اتجهنا إلى الساحل؛ الجهة التي أغارت منها الطائرات لأول مرّة، توجد بعض الخيام على امتداد خط الساحل، بعض الأطفال العُراة يلهون على الشاطئ، لافتاتٌ في كلِّ مكانٍ تحذّر من لمس بقايا الحروب، ومسلّحون يظهرون بين الفينة والأخرى ثم يختفون بين قطع الركام..

كثيرٌ من الطرق التي سلكناها تؤدّي إلى نهاياتٍ ميّتةٍ لا تصلح لأن تسير عليها المركبات، التففنا بضع دوراتٍ قبل أن نصل أخيراً إلى بيتهم القديم، كان ككل شيء حوله: كومةً من رماد.. عندها كان ورد يمرُّ بحالةٍ من الإنكار والصدمة، تعابير وجهه تتنقّل بين الدهشة والجحود، أحياناً كان يتمتم بكلماتٍ لم أفهمها، بدا أنه متضايقٌ جداً من ذكرياته العالقة بآخر مكانٍ أبصر فيه والدته، أو ربما من الطريقة التي خاض فيها ذلك اللقاء: هو فوق الركام وهي تحته.. بقينا بضع دقائق قبل أن نستقلَّ السيارة مرّة أخرى ونقود إلى شرقيِّ المدينة، بقي طوال الطريق صامتاً متوجّساً وكأن موجة القصف التي بدأت قبل عامٍ وقتلت والدته لم تنتهِ بعد، لم أفعل شيئاً لأخفف ارتباكه ولا أظن أن أيَّ شيءٍ كنت

لأفعله ويفلح، أوقفتُ السيارة في أقصى الشرق عند وجهة رحلتنا الطويلة: المقبرة..

وضعتُ يدي على كتفه لأبعث فيه شعوراً بالطمأنينة، لا أظنُّ أنه شعر بي، سِرنا بين الصفوف المكتظّة بالقبور قبل أن نصل إلى قبر والدته في الزاوية البعيدة من المقبرة، كنت أعلم تماماً أن دمعة الرجل غاليةٌ جداً ولكنني لما أبصرتها تترقرق في عينيه أدركتُ كم هي حارّةٌ وجارفة، قرأنا الفاتحة على روحها، لم يكن قادراً على أن يركّب كلماته أمام قبرها، تلعثم وابتلع حروفاً وقرأ أصدق فاتحةٍ سمعتها، ربتُّ على كتفه وتركته وحيداً هناك، بدا أنه يريد أن يخوض مع والدته لحظةً أخيرةً لم يتسنَّ له قبلُ أن يخوضها...

عدتُ إلى جانب السيارة وجلستُ أرضاً، رؤية وردٍ هكذا بعثت فيَّ شعوراً لم أختبره من قبل، لم أستطع منعَ نفسي من التفكير فيما لو كنتُ أنا مكانه؛ أن تكون أمي هي التي تحت التراب، كانت المقبرة من حولي تضجُّ بمعانٍ قاسية، يأسٌ ووداعٌ وندم، آمالٌ مبعثرةٌ حول الموتى وسيرةٌ يرويها عنهم الغياب، سكونٌ لا تقطعه حركة، والشمس تغرق في مستقرّها الأحمر ببطءٍ يزحف الظلام من خلفه ليُسْدِل سِترَه ويعرّيَ سطورَ الفاجعة، كان الموت جالساً فوق شواهد القبور يتلو على الموتى سنّة الرحيل ووحدة النشأة والمصير، ترابٌ في تراب، وضعفٌ مركّب من خوف ابنَ آدم وعجزه أن يدفع قدَره، كان الموت هناك لمّا أدركتُ في القبور أمامي حقيقةً سوداءَ مرعبة، وكأن عمري بأكمله قد جُمع في تلك اللحظة وبُثَّ هباءً في صدور الموتى فلم يستجبْ منهم أحد.. نهضتُ فزِعاً ورحتُ أطوف بين الموتى مُنكراً قسوةَ الدنيا ودناءةَ

البشر، لم أكن أعرف أيّاً منهم ولكنهم سكنوا عينيَ لحظةً وفاضوا في مدامعها، أبجديةٌ خرساء تحكي تفاصيل الحكاية، ومع كلّ ميتٍ أتجاوزه يصبح الأمر واضحاً ولا مجال بعده للصدفة، القبور.. كل القبور هناك كانت تحمل تاريخاً واحداً: الثالث من ديسمبر.

4

عاد وردٌ مع غروب الشمس ليجدني في حالةٍ كتلك التي كان فيها، لم يفهم ولم أشرح، لم يسأل ولم أوْضِح، قفلنا عائدين إلى المدينة الآثمة ولم نعد بعد ذلك اليوم إلى نفوسنا القديمة، لم نعد ننظر إلى الحياة بتلك البهجة والتفاؤل، ليس بعد أن علمنا أن بإمكانها أن تنتهيَ بأشد الطرق دناءةً ووحشيةً، ليس بعد علمنا أنَّ على أحدنا أن يتعامل مع ما ينتج من خطاياه الخاصّة وما ينتج كذلك عن حماقات الآخرين، تلك الأفعال التي تحدد مستقبلنا؛ تغيره أو تلغيه دون أيّ تدخّلٍ منّا، ربما يكون هذا هو الاختبارَ الأصعبَ في الحياة: الصبر على حماقات البشر والتعامل معها.

وصلنا المدينةَ الآثمة ظهرَ اليوم التالي، وكنّا قد بِتْنا الليلة في بيت أحد الأصدقاء، السفر ليلاً مرادفٌ بسيطٌ ومباشرٌ للانتحار، كانت الاشتباكات التي اشتعلت عشيّة الثورة قد انتهت لا لأنها قد بلغت غايةَ الوحشية في نفوس المتقاتلين؛ بل لأن القتال لأيامٍ دونما طائلٍ أصاب الطرفين بالملل على ما يبدو، تقتلون منا فنقتل منكم وندّخر أحقاداً جديدةً لمعركةٍ قادمة..

مررنا بجانب مصلحة الأحوال المدينة في الطريق إلى بيت ورد، كان الازدحام هناك قد شلَّ الحركة تماماً بعد أن تمّ الإعلان عن بدء إصدار الجوازات الإلكترونية، الجميع يريد أن يغادر الجحيم ويعبر البحر إلى القارّة التي بلغت الحضارة فيها أوجَها، القارة ذاتها التي جاء منها الطيران وسوّى حضارة هذه الأرض بالحضيض، لم تكن المدينة الآثمة لتكون آثمةً لو لم يكن أبناؤها كذلك، الإثم صفةٌ بشريةٌ يُلصقها الآثمون بأجزاء الزمان والمكان، قد تُعتبر القداسة تدنيساً في ديانةٍ أخرى، قد يعتبر الحب كراهيةً في قلبٍ آخر، وكذلك الأشياء كلّها في أحوالٍ مختلفة: المكان ذاته في زمانٍ مختلف، الشخص ذاته في ذاكرة من عاشوا بعده، ذات الكلمات في شفاهٍ وأصواتٍ أخرى.. متغيّراتٌ وتداخلاتٌ كثيرةٌ تحدّد انتماءنا ونزاعنا والطريقة التي نشعر بها تجاه الأشياء، ولا يبقى لنا من أمرنا إلا أن نكون ما نحن عليه ونسّلم عاجزين أن ما يحدث لنا ينتج بطريقةٍ ما عن خياراتنا وحماقاتِ قومٍ آخرين..

"وطنٌ يغادره أبناؤه ولا يغادرهم" ربما.. لكنها فكرةٌ مثالية جداً والبشر كائناتٌ بعيدة جداً عن المثالية..

"وطنٌ يبحث عنه أبناؤه خارجه".. بدا أن هذا ما يحدث بالفعل، وإنه لمن الشائع جداً والعاجز جداً أن تقول إن وطنك قد ظلمك؛ إن أرضاً لا تملكُ أمرها قد عبثت بمصيرك وغيّرته للأسوأ، والحقيقة أننا قومٌ بارعون في أمرَين بشكلٍ خاص: الإنكار وتبادل التهم.. ربما يكون نقصُ المثاليّةِ الحادُّ الذي نعاني منه ناتجاً في الحقيقة عن ظنّنا الخاطئ بأننا مثاليّون بشكلٍ مفرط، وأننا لولا الزمان الذي جار علينا والمؤامرات التي تُحاك ضدّنا لكنّا أسياد هذا العالم، وعلى ذلك العرش الخياليّ نتعامل مع العالم

الذي لم يعد يعترف بنا؛ ولا سبب يدفعه لذلك، فلا نجد بُدّاً من أن نتعالى بأمجادنا على بعضنا، أن نحكّم بيننا قبائلنا وقُرانا وأنسابنا.. أن نتسامى فوق بعضنا بما نمتلكه من ثرواتٍ ومدّخرات، كأن الله قد وزّع الأفضلية بين العرب بناءً على حدود سايكس-بيكو وقسّم الشرف بينهم على أساس النفط الذي كان موجوداً بالفعل ولم نفعل شيئاً سوى أننا قد عثرنا عليه، وما النفط إلا صنعةُ الموتى والزمن، وليس مكرمةً إلهيةً تدفع الدول التي تملكه لإنشاء تحالفٍ وعقد قمةٍ أو توحيد صف، أتدري ما تفاهة أن يكون ما يجمع بيننا سائلٌ لا يطيق أحدٌ منّا رائحته؟! أتدري كم تكون حقيراً حينما تحتقر أخاً لك في دولةٍ أخرى لأنها لا تمتلك مثل سائلك العفِن؟! أتدري أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وأن العاقبةَ للمتّقين؟!

5

عودي بقلبٍ متعبٍ دارت عليه رَحى الصور
أزِفَ الهلاك ولم يزل في العين يبحث عن أثر
ما عاد يدري دمعُها من أيّ عينيها انهمر
ألمٌ يُؤجّجُ بعضَه ويصيح كلا لا وزر
أوَكلّما تئد الهوى في الليل يبعثه السهر

كلية الطب: مجلة أكسجين، العدد السابع والعشرون
- كاتب مجهول

6

- من المقصودة في هذه؟
- عفواً؟!
- هاك، انظر هنا.. من هي سيّدة الورق؟
- حسناً؛ أرى ما تحاولين فعله لذا سأختصر الشر؛ هذا أمرٌ قديمٌ لا يعنيكِ.. أتريدين شيئاً آخر؟!
- من هي؟ أريد أن أعرف حالاً؛ من حقّي أن أعرف..
- ليست أنتِ، ليست أنتِ بالطبع..
- لم تُجبْ بعد، لم أسألك من لا تكون بل سألتك من تكون..
- أتشتبهين فتاةً بعينها أم تشتبهين أنني أخونك؟ لا أستسيغ كلا الأمرين..
- أرجوك لا تجبْ سؤالي بسؤالٍ ولا تُفوّلني ما لم أقل، أخبرني فقط ما اسمها
- ربّما يجدر بكِ أن تخفّفي من حدّة حديثك قليلاً..
- أعدّك أنني لن أكلّمك أبداً إذا لم تخبرني من هي..

وهمّت أن تجمع أوراقها وتغادر.. كان وجهها عند ذلك الحد أحمرَ مشعّاً، والأمر على بساطته اتخذ أبعاداً مخيفةً في مخيّلتها وبنَت على أساسه مدينةً من الأوهام والظنون، لا بدَّ أن الجنون طبعٌ كامنٌ في المرأة، طبعٌ لا يوقظه فيها إلا الرجل..

- حسناً حسناً، اجلسي..

من الشائع في الأدب أن تشبّه مدينةً بأنثى وتكتب فيها غزلاً، الشيء غير الشائع أبداً أن تغار أنثى من مدينة!

- ماذا؟ لستَ مُقنعاً البتّة، أجد صعوبةً أنك بكلامٍ كهذا تصف مدينةً لا امرأة..

- وأنا كذلك أجد صعوبةً في تصديق أنك تخوّنيني؛ للحظةٍ هناك ظننتُ أن ورداً يتحدّث إليّ..

- أنا لم أكن، أنا.. تلك لم تكن أنا..

- وهذا شيءٌ آخر غير شائعٍ أبداً! من التي كانت تتحدث من خلالك؟

- كنتُ غاضبةً، أنت تعرفني وتعرف أنني..

- أنك تغارين؟

- حسناً، أجل؛ أغار.. من الأفضل لك أن تعتاد هذا

- أحبُّ هذا..

- ولكن الذنب ذنبك؛ من يخاطب مدينةً كامرأة؟

- من يحبُّها.. واسمها حيفا، ومن الآن فصاعداً ستكون ضرّةً لك!

- تقصد: ضُرّتك، لا داعي للتنكير فلا مجال هاهنا للتعدد..

ابتسمتُ وأنا أتابع استنتاجها، يبدو أنها فهمت درسها جيداً، قد تصبح لغويّةً ماهرةً إذا ربطنا كل شيءٍ بالتعدّد!

- أتقصد حيفا التي في فلسطين؟! ألا تسكن أنت في عمّان؟

- بلى، خرج جدّي من حيفا عقب النكبة، كانت حيفا ثاني المدن التي سقطت في أيدي العصابات الصهيونية آن ذاك، ولمّا ما كان لدى أهل القرى حيلةٌ في ردّ النار بفؤوسهم انقسموا بين من آثر القتال المستميتَ وبين من نزح، بقي أكبر أعمامي هناك واستشهد في السادسة عشرة من عمره أمام عينيّ جدي الذي لم يخبر أحداً بمصير ابنه إلا بعد أن وصلّوا مخيم الكرامة واستقر الأمر بهم

أخيراً على الضفة الأخرى من نهر الأردن، الذي لم يتوقّعه أيٌّ منهم أن بداية اللجوء كانت متابعته، وهكذا تبع الكرامةَ مخيم حطّين، ومن هناك إلى عمّان، وبعد ستّةٍ وأربعين عاماً جئتُ إلى الدنيا بلا وطن، وكل أرضٍ وبيتٍ ومالٍ جاء بعدها لم يستطع أن يغيّر تلك الحقيقة القديمة..

- إذاً أنت لاجئٌ أيضاً.

- أنا عائدٌ لم يعد بعد.

- أشعر الآن أن ما آلف قلبينا كانت المصيبة، شتاتي في هامش وطني وشتاتك خارج وطنك، وقد جمع الله الشتيتَين في شتاتٍ ثالث، وجاء الحب في سياق الفاجعة، بهيئته المُلخّصة في وجوه العائدين من الموت إلى أحضان أحبابهم، لا بهيأته ممشوقةِ القوام فوق بساط الريح، لكنه وبرغم منشئه الضحل نما وازدهر..

- حيفا، عمّان، هنا.. ربما غاية الحياة ألا تسير في خطٍّ مستقيمٍ بل أن تُغلق الحلقة..

- يجدر بك أن تأخذني إلى هناك..

كدتُ أن أقول لها أنه يجدر بها أن تأخذني إلى جارة الساحل الحزين أيضاً لأنني أودّ رؤيتها، ولكن لم أشأ أن ألعب دور المتجاهل أمامها وأبدأ علاقتنا بالكذب، ستعلم قريباً أنني وأخوها نخطّط لزيارتها، اتفقنا أن نبقيَ الأمر سرّاً إلى أن يتم..

- أن تغلق الحلقة.. لا أمتلك إلا أن أسألكِ: أفكرتِ يوماً أن تكوني سبباً في إغلاق الحلقة لا عائدةً فقط لأن غيرك قد حرّر الأرض وأتاح لك الفرصة دون أي مجهودٍ منكِ؟ أعتقد أنكِ تحبّين أن تنجزي شؤونكِ بنفسكِ ولا تنتظرين من أحدٍ أن يُتيح لكِ فرصةً لتكوني ما تشائين في أي وقتٍ وأي زمن..

ألقيتُ هذا على مسامعها آملاً أن تبتلع الطعم وتقيس الأمور على نفسها ثم أقيس ما أريده وفقاً لقياسها وأحاججها به.

نظرتْ بإبهامٍ وكأنها تقرأ ما وراء هذا الافتراض وتحضّر جواباً سياسياً له:

- لا أستطيع أن أنكر ذلك، لكنها لا تعدو أن تكون نوبة حنين، أتقول إنك فكّرت في هذا؟

(قلتُ لنفسي وأنا أتابعها: اللعنة؛ يبدو أنها تدرك تماماً ما نحن بصدده..)

- تستطيعين أن تقولي إنها فكرةٌ قديمة تبنّيتها منذ صغري وأنوي بالفعل تنفيذها أو الموت في سبيل ذلك..

- توقّعتُ هذا، لماذا تظن أن موتك في سبيل فكرتك (والتي أظن أنها ساميةٌ بالمناسبة) هو أفضل ما يمكن أن تقدّمه لهذه الفكرة؟ ربما يكون العيش من أجلها خيراً لك ولها..

- لا أقول إن الموت غايةٌ هنا ولكنّه واردٌ جداً، هو نتيجةٌ تكاد تكون حتميّةً للجهاد..

- أدري ذلك (وعقدت يديها باضطراب) لكن لماذا لا تكون في الجانب السليم؟ جاهد بمالك مثلاً، المال قوّةٌ لا يُستهان بها..

- لا أظن المال وحده كافياً، لقد مرّ أكثر من ستين عاماً على النكبة، لو كان الأمر ماديّاً لحُلّت القضيّة منذ زمن..

تجنّبت النظر إليها أثناء ما قتله، كان اضطرابها يزداد مع كل كلمةٍ أقولها، وكأنها تدافع أفكاراً في رأسها ثم ما تفتأ أن تراها صياغةً في كلامي..

- ولكن لماذا يجب أن تكون أنت؟

- على أحدٍ ما أن يفعل شيئاً، ثم إنها لن تعود لو أن كل واحدٍ فكّر في نفسه وحسب

قالت بانفعال وهي تضمُّ قدميها وتضع يديها في حضنها فوق "سيدة الورق":

- لماذا تخبرني هذا؟ لماذا تفعل هذا بي؟ أتريد أن تهدم هذا الزواج في مهده؟

- لا تنظري إلى النصف الفارغ من الكأس، نحن هنا معاً وهذا ما يُهم..

- كلا، يجدر بك أن تقول: لا تنظري إلى النصف المكسور من الكأس ولكن انظري إلى النصف الذي لم يكسروه لكِ بعد..

- لماذا تفتعلين مشكلةً من فراغ؟ قلتُ ما قلتُه ليكون كل شيءٍ واضحاً بيننا..

- أفتعل مشكلةً لأنك تريد أن تموت! لأن الكأس مكسورٌ لا محالة، لقد فقدتُ الكثيرين حتى ما عاد بي حيلةٌ لأفقد أكثر، أتظن أن حياتك تخصّك وحدك؟ ماذا سيفعل العالقون في الحسرة لفقدانك؟ هل خطر ببالك كيف سيكون حالنا من بعدك؟

- وتريدين لهذه الأمة أن تقوم على ظهر من؟ أجيبي.. كيف سأكون رجلاً وأنا أرتجف في حضن زوجتي بينما يفقد الآخرون أرواحهم؟ إذا كنتِ تريدين رجلاً كالخاتم في إصبعك فقد قمتِ باختيارٍ خاطئ، أنا أرفض الحياة التي يعيشها الآخرون، ليس لي أن أتابع حياتي وأنا أعلم أن لي أرضاً مسلوبةً ووطناً يُغتصب، لماذا تظنّين أن لنا حقّاً في الحياة أكثر من أولئك الذين تتطاير أشلاؤهم بينما نحن نتكلم؟

- لماذا تفكّر بأنانيةٍ هكذا؟ أنت الآن غاضبٌ ولهذا لا تكيل الأمور بإنصاف، لماذا لا تفهم أنه ليس بوسعي أو بوسع أي فتاةٍ أن تعيش يومها إذا كانت تعلم أنها في الغد قد تصبح أرملة؟

- كفاكِ تكهّناً.. هذا أفضل ما ستحصلين عليه مني: سأكون لكِ ما دمتُ حيّاً ولكني سأموت لأجل غيرك، هذا أنا ولا أنوي أن أتغير..

- كما تشاء..

وهكذا كانت قد اختفت خلف أصداء الكلمات الأخيرة، لا أدري متى بدأَتْ بالبكاء ومتى أدركتُ بالفعل أنها قد ذهبت، وبقيَتْ ملامحها تتكرّر مع المشهد الأخير، خطوطٌ سوداءُ من الكحل تشقُّ مجراها مع الدمع في خدّيها، فقدٌ في غير مكانه وخوفٌ من شيءٍ لم يحدث بعد، قسوةٌ مني يقابلها خوفها عليّ من نفسي؛ خوفها على أولادها من ألمٍ قد عاشته وكادت معه أن تفقد حياتها، لم تكن لتتنازل عمّا تريد ولم أكن لأتنازل كذلك، أعدتُ ما دار بيننا مراراً في رأسي وما خلصتُ إلا إلى نتيجةٍ واحدة: أنني أحبّها وأن حبّي لها سيكون عائقاً في الوصول إلى غايةٍ أسمى وحلمٍ قديم..

7

عرجتُ عشيةً على بيتهم؛ مرّت خمسةُ أيامٍ منذ خلافنا ولم يتنازل أحدنا ليكلّمَ الآخر، حتى عندما أوصلت ورداً إلى بيته ظهر اليوم لم تخرج لمقابلتنا أو لتطمئن عن حالنا بعد اشتباكات البارحة، لم يبقَ للزواج إلا ثمانيةَ عشر يوماً، وكلّما أوغلتُ

التفكير في أحداث الأيام السابقة ازدتُ قناعةً أنني على حقّ، جزءٌ ما في داخلي لم يغادر تلك المقبرة أبداً، ولا أظن أن الثالث من ديسمبر سيكون تاريخاً أتعايش معه بعد اليوم، عليها أن تدرك أن الحياة التي لا ندفع أرواحنا ثمناً ليسعد بها من بعدنا أبناؤنا لا نستحقها نحن ولا هم، تلك الحياة التي نقضيها خائفين من أن تأتيَنا الحرب بدل أن نقوم إلى الحرب ونوقفها عند حدّها، عليها أن تدرك أن موت الإنسان خيرٌ من عيشه خائفاً..

طرقتُ الباب وإذا بوردٍ يظهر من خلفه، يبدو أنه كان على وشك المغادرة.

- يبدو أنك اشتقتَ لي

- ليس تماماً.. هل والدك في المنزل؟

- لا، خرج منذ مدة؛ هل تريده في أمرٍ هام؟

- لا؛ لا شيء؛ بعض الترتيبات فقط، هلّا دفعتَ هذه الرسالة إلى شقيقتك..

- اخترعوا الهاتف قبل ثلاثين عاماً كما تعلم!

- تختزل هذه الأشياء قيمة عاطفية أكبر، ثم إن شبكة الهاتف مقطوعة منذ الأمس..

- لا بأس، لكن قبل هذا؛ إذا أردت أن تكتبني يوماً فما الاسم الذي يناسبني؟

- ولماذا سأقوم بالكتابة عنك؟ ثم ليس للأمر علاقة بما يناسبك؛ إنه أنت وما تستحقه... أظن أن " شقيق السراب " يُنصِفك..

- ماذا؟ أهذا أفضل ما لديك؟! تعرّفني بغيري.. جرّب شيئاً آخر

- ما رأيك بالجميلة النائمة؟ تلك التي دخلت في غيبوبةٍ واستيقظت بعد قُبلةٍ من أميرها المنتظر، أعتقد أن الاسم يتناسب مع حالـ..

- بإمكانك أن تتوقف أيها اللعين! يا لك من وغدٍ سليط اللسان! لا عجبَ أنها وافقت عليك، إليك رسالتك؛ ادفع إليها بنفسك، إنها تستشيط غضباً منك بعد أن جعلتني أسألها عن قصة الاسم؛ أراهن أنها ستضربك! لقد تركتها تخبز في المطبخ، دع الجميلة النائمة تنادي لك الجميلةَ الغاضبة، اثبت مكانك ولا تهرب..

وولّى بعيداً قبل أن أتمكن من منعه، وظهرت أخته من حيث اختفى، في يدها سلّةٌ ما؛ وقسماتها غير واضحةٍ من الدقيق الذي تناثر على وجهها وملابسها؛ ومع كل خطوةٍ تخطوها باتجاهي تنبعث منها رائحة الخبز أكثر فأكثر، كنتُ أدرك حجمَ العتب الذي يخفيه الدقيق على وجهها، لم أكن بحاجةٍ إلى النظر، حتى إذا وقفت أمامي وضعت السلة في يدي وهمّت بالابتعاد

- انتظري

- ماذا تريد؟

- ربما لا أكون منصفاً إذا منحتك حياةً ومنحتك معها نهايتها؛ ولكنّا نعيش لغايةٍ عُليا يا صغيرة، إياك أن تظني بأني أستطيع أن أفرّط بأحدكما أو أبني تحقيق حلمٍ ما على تعاستك..

- وكيف ستفعل ذلك وأنت ميت؟ كيف تريد أن تبدأ حكايتنا بالموت الذي يختم به الآخرون حكاياهم؟

- يمكنني دائماً أن أنتصر؛ أن أعود إليكِ ذاتَ مساءٍ وفي إحدى راحتَيَّ القدس، وفي الأخرى حروفٌ ما لها إلاكِ منفى؛ ولا تعرف إلا أن تربكك!

- إذا عاهدني على الحياة..

- عليها أعاهدك؛ ما دام فيَّ عِرقٌ نابضٌ يرفض على كل الأوراق إلا أن يكتبك؛ باسم الحب الأسمى؛ واسمه الأسمى سراب..

- معاً للأبد..

- معاً للأبد..

وتفتّحت أساريرها وابتسمت؛ أظنّها كانت لتحلَّ الخلاف لو أنني لم أبتدئ، قلتُ:

- كم أهواكِ يا وجهَ الدقيق؛ لم يبق الكثير وستخبزين في بيتنا..

- مهـ.. مهلاً؛ ما الذي تقوله فجأةً؟ بارعٌ أنت في الالتفاف على الكلمات..

- ما الذي في السلة؟

وراحت تلملم شتات شجاعتها ثم قالت:

- فيها "عِشقٌ مخبوزٌ" لك وحدك..

قالت كلماتها هذه وهربت كطفلة، وتلاشت من ورائها رائحةُ الخبز؛ تاركةً ذلك الشخص الذي يبعثرها دائماً بكلماته مهدوماً على بساط اللغة؛ لا قوةٌ في الكون بإمكانها أن تجمعه، ولا شيء أغلى عليه في الدنيا من سلة الخبز والجميلة التي خبزته؛ الجميلة التي تغزّلت به...

الفصل الخامس

الموتى لا يُفشّون الأسرار

1

وانتهى العام الثالثُ عشرَ من الألفية الثالثة كأن لم يكن أبداً، وغدا صفحة مهجورةً في التقويم؛ مطويّةً إلى الأبد، وذهبت فصوله الأربعةُ إلى غير عودة، ورفعنا أعمارنا لعامٍ آخر فما ارتفعت إلا بشِقّ الأنفس، وما زاد عمرك فيما مضى إلا بالنقص فيما بقي، وكبرنا وفينا أجزاءٌ لم تكبر بعد، ربما لن تكبر أبداً.. وما كنا فيه إلا كما كنا في العام الذي سبقه: أحياءً على الأقل أو أحياءً على الأكثر...

بوتيرةٍ كسولةٍ أخذ ذاك العام يُخرج زفَراته الأخيرة، وكأنه يريد أن يبتعد بنا عن قدَرنا المحتوم؛ ولخيبةٍ ما كانت أوراق التقويم المهترئة تقاوم رغبةً جامحةً في السقوط؛ حتى إذا سقطت آخر أوراقه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "غادِروني واعلموا أنكم فيَّ أبدَ الدهر باقون".

وما تعلمنا في ذلك العام أكثرَ من أن الصمت لغةٌ يفهمها جميع العرب، شيءٌ يعرفون تماماً كيف يفعلونه، أمرٌ وحيدٌ يتفقون عليه، وحتى وهم متفقون عليه يُنكرونه!

وجرّت العقولُ الحمقاءُ البلادَ إلى حالةٍ من الفوضى قلَّ أن عرف الناس لها مثيلاً؛ فقد كان في تاريخ هذه البلدةِ كرهٌ ضاربةٌ جذورُه في نفس كلِّ شيخٍ وشابٍ وفتاة، كانت العنصرية النتنة تُعمي بصيرتهم وتحجب تأثير الدين والمنطق، أما الثورة المجيدة فقد كانت تمر بأزمةٍ مُزمنةٍ لا يُتوقع لها أن تنجوَ منها؛ فقد أصبحوا يُتاجرون بها في العلَن، وكل ما كان يتم تحت الطاولة من مساوماتٍ خرجت بسقاطةٍ إلى الواجهة، وأصبحت قِيَمها الرفيعةُ عاراً مكتوباً على جبين كل ثائر؛ فقد انسلخ بَنوها من كل فضيلةٍ وتركوها للريح عاريةً وحيدة..

وعمَّ الجنوبَ حالةٌ من الاستنفار غريبة، بدأت بانقطاعٍ غير مسبوقٍ للوقود ومستلزمات الحياة كالدقيق وبطاقات الاتصال؛ وانتهت بانقطاع عامٍّ للكهرباء على فتراتٍ متفاوتة، وشهدت الليالي التي سبقت مطلع العام اشتباكاتٍ متقطعةً بين القوى المسيطرة في الجنوب؛ وقد بدا الأمر اعتيادياً في البداية إلى أن احتدّت وتيرة الاقتتال على نحوٍ ثقيل استُعملت فيه المدافع والراجمات عِوضاً عن الرصاص أو إضافةً إليه؛ ما أدى إلى شلل الحياة كليّاً مع بداية الأسبوع الثاني من العام الجديد؛ فأُغلقت المؤسسات والجامعات والمحالُّ التجارية، وامتدت اشتباكات الليل لتشمل النهار أيضاً، وهمَّ الناس على إثر ذلك بمغادرة المدينة إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا..

وتلقيتُ بدايةَ الأحداث اتصالاً من سراب أخبرتني فيه أنها ستنتقل مع أخيها للعيش في سكن الأطباء داخل حرم المشفى، وكان خبرٌ كهذا فيه من المواساة ما فيه إذ إنها ستقيم الآن بجانبي؛ تحديداً في نفس المبنى، فبعد كل شيءٍ؛ وضعٌ كهذا لم يكن يسمح

بإتمام إجراءات الزواج، ولكننا احتفظنا بالأمل لآخر لحظاته بأن تهدأ الأمور ويتم الزواج في موعده، أما والد سراب وأختها الصغيرة فكانا قد غادرا المدينة قبل بداية الأحداث ولم يتمكّنا من العودة؛ فقد أُغلقت جميع منافذ المدينة قسراً على كل من أراد الدخول...

أما سبب الحرب فتافه! وكل من شارك فيها تافهٌ أيضاً! ولا وجود للمنطق في جزئياتها فضلاً عن كلّياتها، كلا الطرفين الذَين أشعلا فتيل الحرب كانا من الثوار؛ وكلاهما ما عرف الله حقَّ معرفته إن كانا قد سمعا به أساساً! وما عرفا عن الحرية شيئاً؛ فقد كانا عبيداً لكل ما تفرضه القبيلة، قتل أحدهما من الآخر رجلاً فقتلوا مقابله خمسةً؛ واشتعلت!

وتمَّ إعلان الجنوب منطقةً مغلقةً للعمليات العسكرية، كمناورةٍ بلهاء لإقناع العامة بأن الجيش يقاتل المتسللين عبر الحدود من غير العرب؛ فقد كانت كتائب الجيش المزعوم تقاتل بعضها بدعوى القبَلية، لم يكن هناك وجود فعليٌّ للجيش في حضرة القبيلة، وتوقفت حركة الطيران من المدينة وإليها محلياً ودولياً عقِب إغلاق المطار كنتيجةٍ حتميةٍ للتصعيد في محيطه، وبدأ عداد القتلى بالتذبذب بين كثيرٍ وأكثر؛ ليتجاوز الخمسين في ثلاثة أيامٍ هي الأقل دمويةً في ما تلاها عبر عشرين يوماً من الحرب..

واستقرت سراب في الشقة المقابلة لنا؛ حيث كانت تلك الشقة مِلكاً لأحد أقربائها الذي يعمل وكيلاً لوزارة الصحة في العاصمة، ومع أنها أصبحت قريبةً جداً كما لم تكن من قبل؛ إلا إن تأثير الموت في الأشياء من حولنا أطبق الأفواه، كنا نلتقي كلٌّ في شرفته مساءَ كل يوم؛ تناولني فنجان قهوةٍ ونتبادل النظرات

وصمتَنا، ونراقب تلك البوابةَ المَهولةَ مشرّعةً في سماء المدينة البائسة؛ تتلقّف الأرواح التي ضلّت طريقها إلى الحياة فخسرتها مرّةً وإلى الأبد، وتنقلها إلى عالمٍ آخر..

كان شقيقها لا يشاركنا لقاءنا على الشرفة؛ لا أظنه استساغ النظرَ إلى الجثة تتبع أختها وبكاءَ الفاقدين الذي لا ينقطع، حتى سراب نفسها كانت تستأذن أحياناً وتنسحب إذا ما أدخلوا جثة مقاتلٍ وهم يكبّرون، يكبّرون! هل كانوا حقاً بذلك العجز عن تقبل حقيقةِ أن ما يقتل أبناءهم هي الجاهلية وحدها؟ أم كان ذلك استهزاءً صارخاً بالله؟ وما استطعتُ أن أفهم على طويل ما عشتُ بينهم كيف يمكن لِلَفظ "الشهيد" أن يصبح واسعاً جداً بحيث يشمل ضِدّه؛ فأياً كان مَن سقط من الطرفين تُعلَّق صورته في إحدى الشوارع على أنه الشهيد البطل..

وغادرَنا ورد نهايةَ الأسبوع الأول ليتفقد بيتهم الذي تركوه، إذ أن أحد جيرانه أخبره بسقوط قذيفةٍ في فناء منزلهم؛ وأن النار المشتعلة في محيطه اضطرتهم لكسر الباب الخارجي حتى يتمكنوا من الولوج وإخمادها، لذا كان الضرر محصوراً؛ مع احتمال أن يكون داخل البيت متضرراً بفعل الموجة الحرارية التي تُحدثها القذيفة على حدِّ تقديره..

وحاولت سراب جاهدةً منعَه من الخروج وهي تبكي فما كان ذلك ليوقفه، قال لها وهو يهمُّ بالرحيل: "لقد رأيتُ بيتنا مرةً محروقاً مهدوماً على رأس والدتي؛ ولن أراه كذلك مرةً أخرى...". وتعانقا كأنهما لن يلتقيا بعد ذلك أبداً؛ شيءٌ ما في تصرّفاته لم يكن في مكانه، لاحظت شقيقته ذلك أيضاً..

تبعتُه قبل أن يغادر إلى غرفته، سألته أن يصدُقني القول فيما يحاول أن يفعله، فقد كانت مغادرته جنوناً؛ وكنت أعلم يقيناً أنه يعلم ذلك، التفت إليَّ ونظر مباشرةً إلى عينيّ كأنه يبحث فيهما عن حجّة:

- ليذهب منزلنا إلى الجحيم؛ كانت جود من اتصلت بي، يبدو أن شيئاً ما قد أصابهم..

- أرجوك فكّر بالأمر، لما لا تذهب إلى المشفى وتطلب منهم أن يُرسلوا سيارة إسعاف؟

- بل أرجوك أنت أن تتفهّم ما أمرُّ به، كنتَ لتفعل الشيءَ ذاته لو أنّ سراباً كانت مكانها..

كان محقاً في ذلك، وكنتُ أعلم أنني لن أستطيع أن أمنعه، عانقني وأوصاني بأخته، وغادر مع وقت الظهيرة بعد أن تم الاتفاق على هدنةٍ مدتها ثلاث ساعاتٍ للتوصل إلى تسويةٍ بين الطرفين..

لم تخرج سراب إلى شرفتها مساءَ ذلك اليوم، في ذلك المساء أُعلن فشل التسوية وعودة القتال من جديد، صنعتُ قهوتي بنفسي وتجرّعتها مع مرارة هذا الواقع، من الحماقة أن يُنشئ أحدٌ عائلةً في بلدةٍ كهذه، أن تفعل شيئاً كهذا هو تدريبٌ لا أحد يطيقه على الفقد؛ ما معنى الحياة إذا أحرقتها خوفاً على من تحب أو أحرقتك بعده حياً على ذكراه؟ أتراها تقبل أن تعود معي إلى موطني عند الزواج؟ لا أظنها سترفض؛ ربما سيفعل والدها، سأقنعه بطريقةٍ أو بأخرى، فقد بدأنا نراهن على حياتنا في هذه المدينة، رهانٌ كهذا لا أستطيع أن أخسره..

تذكرتُ نهايةَ العام الماضي؛ تذكرتُ الكآبة التي لازمته في أيامه الأخيرة، تُرى هل طويناه عاماً للذكرى أم أنه كان أقرب منها إلى النسيان؟ أما كان للزمان منه إلا ما محاه الزمان؟ أكان أحدنا ليقف على حدود التداعي لو علم أن بداية السقوط هي متابعته؟ ما الذي زرعه أيلول فينا وجاء ديسمبر لينزعه؟ لماذا يستيقظ الخراب فجأةً في هامش الذاكرة كلما خانته الذاكرة؟ ما العلاقة التي جمعت ديسمبر بالمصائب؟ ولماذا استبدل الشتاء الرصاص بالمطر؟

ما رحل ديسمبر إلا لكي يعود، وما عاد إلا لكي يرحل، وما بين رحيلٍ وعودةٍ كنا هناك ذاتَ شتاء، وبقينا هناك في كل شتاء، وما بقي فينا إلا أن تسقط عنا ورقة التوت الأخيرة، نمشي والأرض تفرُّ من تحت أقدامنا، مغمضَين نصف عينٍ كاسرَين نظرَ الأخرى، وكم دار الزمان وكنا وحدنا ثابتَين في دورته، نجتثّ أنفسنا من عامٍ مضى نحو عامٍ جديد...

2

ويحدث في الغياب أن تجد نفسك، أن تعرف سرَّ البحّة الذابلة في طرف المكالمة البعيد، صوتٌ لم أسمعه منذ زمن، صوتٌ لا أُخطِئه مهما طال الزمن..

قالت: "في البداية إني أحبّك.. وفي النهاية إني كذلك، وأعلم أن الحياة كانت جميلةً لما وضعتَ وردةً في شعري وأعلم كم كانت قاسيةً عندما ظننتُ أنني سأضع وردةً على قبرك..

وأعلم أنني لما تركتك قد تركتُ شيئاً مني معك، وأنني في كلّ مرّة نظرتُ فيها إلى المرآة وأضعتُ وجهي كنتُ أبحث فيها عن وجهك، وأعلم أنني لم أنتظرك إلا ستةَ أشهر وأنك كنتَ لتنتظرني أكثر وأكثر، ولكن وقد أزِف الهلاك وبانت خيوط هزيمتي أمام غيبتك فلا أريد أن أقول لك إلا أنني أحبّك.."

وانقطعت الغصّة في صوتها عندما انقطع الكلام، وبقي الصدى من بعدهما يتردّد في أرجاء جسده باعثاً في كلّ خلاياه غايةً واحده: أدركها لتدرك نفسك.. كان يظن أنه قد تجاوزها عندما استعاد وعيه وعلم أنها قد تجاوزته، جزءٌ ما فيه عرف أن هذا ما يُفترض به أن يحدث منذ البداية، وأن شرارة الحب عندما تخبو ستترك خلفها شخصين يحملان انتماءاتٍ دينيةً مختلفة، اختلافٌ مربكٌ لأولادهما، الأم هي من تربّي فعلاً والأب يحدد دين أبنائه، وهذا الارتباك في تلك العلاقة أنهاها قبل أن تبدأ، كان ورد ممتنّاً لذلك..

إلا أن قلبه كان يضطرب في بُعدٍ آخر، بُعدٌ يستيقظ فيه الشوق ليلاً ويعبث بقرارات عقله ويُخضعها لرغباته بعيداً عن أي منطق، ويتركه حائراً بين ما يريده وبين ما يجب عليه أن يفعله.. ما اضطرّه إلى أن يفصل عمل قلبه عن إدارة عقله ويترك كلاً منهما يعبث بمفرده دون أن يخضع لسيطرة الآخر، ثم يأخذ بقرار عقله وحده دون أن يراجع قلبه، لأنه يعلم تماماً أن تداخلهما يعني سيطرة أحدهما، سيطرة الرغبة على الإرادة..

ولكنّ صوتاً قادماً من الماضي عبر سماعة الهاتف وعبر أثير ذاكرته المضطربة أيقظ الحنين فيه وأشعله، تذكّر أول عهده بعينيها وكيف أغارت على قلبه واحتلّته، تذكّر الصراعَ يتأجّج في

داخله قبل أن يصارحَها وتصارحَه، قبل أن يخوضا حربهما معاً ضد العرف والعائلة، تذّكر الورود المجفّفة التي تضعها في كتبها التي تهديها إليه، تذكّر الوردة التي وضعها في شعرها يومَ أن خطبها وباركت عيناها حياته، وفي نوبة حنينٍ مزمنةٍ ترك ما كان مكبوتاً في صدره يفيض ليدفع الماء في عينيه، حسم أمره واختار أن يتصرف كرجلٍ ويلبّي نداءها ويترك ما دون ذلك لوقتٍ غير هذا..

وكان في الطريق إليها يغالب نبرةَ الوداع في صوتها، عامٌ مضى فما الذي دفعها الآن لأن تتّصل؟ لم يكن مرتاحاً للتشاؤم الذي أطبق على فكره ولكنّه فضّل أن يتركه يتغلغل في شعاب روحه، أن تتوقّع الفاجعة خيرٌ من أن يصفعك بها الواقع، لقد رأى الأمر يحدث مِراراً ودائماً ما كان ينتهي بنفس الطريقة: جثثٌ فوقها ركام.. عندها يفقد الإنسان هويّته التي تميّزه ويغور تماماً في أصله، وفي الأصل تختفي ملامح الشقاء والهناء ليظهر محلَّها الألم الذي جُبلت عليه الحياة، الألم هو وحدة المشاعر المتناقضة في جسد الإنسان القاصر عن احتمال التناقض والتعبير عنه، يريد أن يفرح؛ حزينٌ لأنه لا يستطيع، يتعذّب لأنه عالقٌ بينهما...

بعضٌ من سقف البيت قد سقط، باقيه لا يزال قائماً.. سعِد أن خسارتهم لم تكن بحجم خسارته التي شهدها في جارة الساحل الحزين، وعلم لمّا عبر البوابة أنه لا تفاضل في الخسارة، في الحرب كلّنا ضحايا، كان البيت متفحّماً من الداخل، وفكرة أنّ أحداً كان فيه وخرج حيّاً هي فكرةٌ مستبعدة، التفّ حول البيت باحثاً عن أثرٍ للحياة، لم يجد أحداً، لم يغامر بالدخول، فأياً كان ما سقط على البيت فإنه لم ينفجر بشكلٍ كامل، نادى بأسمائهم فلم

يُجب أحد، رنّ هاتفه لمّا لمح في شرفة أحد المباني المجاورة فتاةً تلوّح بيدها إليه، رفع هاتفه ليجيب، لقد كانت هي؛ جود..

خرج من المنزل مسرعاً وصعد إلى الطابق الثاني في البناء المقابل، أخبرته جود أنهم في بيت جيرانهم وهي تلوّح له من بعيد، وكان في استقباله لما دخل البيت عليهم سبعة أشخاص، عرف منهم جوداً وأمها وأخاها، والباقي كما يبدو هم جيرانهم، زوجان وطفلاهما..

خرجت به أم جود تتبعها ابنتها إلى الشرفة وأخذت تشرح له ما جرى بحسرة، كانت تغالب النحيب في صوتها تارةً ويغلبها تارةً، شيء ما سقط على البيت (لا أحد يدري ما هو) أدى إلى إصابة ابنتيها اللتَين نقلهما زوجها إلى المشفى الميداني بعد أن تم إعلان الهدنة، وتابعت تقول:

- كنّا نظن يا ولدي أن هذا كل ما في الأمر، فما أن غادر زوجي بالفتاتين حتى سقط شيء آخر أو ربما انفجر ذلك الشيء الذي سقط بدايةً، لا أعلم.. وتفحّم البيت بجدرانه (وأخذت تشير إلى نار لا تزال مشتعلةً في زاوية البيت) من الجيّد أننا كنا قد غادرنا قبل أن يحدث كل هذا

ثم التفت إلى جارتها وقالت:

- اعذري لنا تطفّلنا

وما كادت تنهي جملتها تلك حتى دوّى صوتٌ في البيت المتفحّم أمامنا فانهارت إحدى جدرانه مُسقطةً جزءاً من السقف، وخرج الجميع إلى الشرفة على إثر ذلك، أخذنا نحدّق دون وعيٍ في ما يحدث أمامنا، شيءٌ ما انفجر داخل المنزل، خزّان وقودٍ أو أسطوانة غازٍ أو ما شابه.. تردّدت تأوّهاتٌ من أفراد الأسرتين

قطعها بكاء والدة جود، يبدو أن هذا هو حد احتمال المصيبة بالنسبة لها.

أسندت جود والدتها وساعدتها على الدخول يتبعهما البقية، بينما بقي ورد واقفاً ينظر إلى السقف أمامه يترنّح، قبل عامٍ فقط كان داخل منزلهم عندما حدث الشيء ذاته، تساءل في نفسه عما إذا كان أحدٌ ما قد راقب منزلهم وهو يسقط على رأسه وعلى جثمان والدته، كان يتأمّل النار كمن يتأمل شخصاً غاضباً أخطأ هدفه، لقد رأى الأمر من ثلاثة أبعادٍ حتى هذه اللحظة: أمه تموت أمام عينيه، ونفسه تكاد أن تفارق بعدها، ورآه منذ قليل في وجوه عائلةٍ تفقد بيتها ولا تملك من أمرها شيئاً إلا أن تراقب..

عادت جود بعد لحظةٍ إلى الشرفة وخاطبته لمّا أحسّت أنه لم يلحظ قدومها:

- شكراً على قدومك، أنا.. نحن ممتنّون كثيراً لذلك

التفتَ نحوها بوجهٍ مبهمٍ فراغٍ من التعابير لم تقرأ فيه الفتاة شيئاً يحثّها على متابعة الكلام أو يزجرها عن إتمامه، قال بهدوء:

- لا بأس..

وقفل عائداً إلى الداخل دون أن يزيد كلمةً واحدة، قدّرت الفتاة أنه بذلك يعاتبها لأنها تركته، ربما يكرهها الآن، وربما لا تعني له شيئاً ولا يفكّر بها أبداً، لماذا جاء لنجدتنا على أي حال؟ لا يمكن أن يكون فعله من قبيل المجاملة، ربما هو يلبّي نداء فتاةٍ استغاثت به من باب المروءة لا أكثر..

أما ورد فما كان يعلم لماذا تجاهلها ولم يطالب نفسه بتفسير، تركها خلفه وتوجّه إلى أمها، كانت جارتها تحاول إقناعها بشرب

كأس من العصير لأجل صحّتها، يبدو أنهما صديقتان منذ زمن، جلس ورد بجانبها وقال وهو يخاطب الأم وابنها على حدٍّ سواء:

- منزلنا فارغٌ يا خالة، وأنتم أقرباؤنا والبيت بيتكم، ما رأيكم بالانتقال إلى هناك؟

قاطعه ابنها بصوتٍ غليظٍ جاف:

- لا نريد منك شيئاً، من طلب منك القدوم على أي حال؟ أدرك ورد حينها كم كان مخطئاً إذ أدخل هذا الغرَّ في النقاش، يبدو أن جود لم تخبر أحداً بأمر تلك المكالمة، التفتَ وراءه فرآها قادمةً من الشرفة نحوهم.

قالت الأم توبّخ ابنها:

- أهكذا تخاطب من جاء في مثل هذا الوقت ليتفقّد حالك؟ لا أريد أن أسمع صوتك يا قليل الأدب..

تابع ورد وقد أصبحت جود واقفةً خلفه:

- يبدو أن هذه المنطقة ليست آمنةً بعد الآن، أنا أصرُّ على هذا فلا تصدّيني يا خالة وقدّري ظرف البلاد وما تمر به..

وتابع وهو ينقل بصره إلى صاحب البيت:

- ينبغي بك أيضاً - سيدي - أن تأتي معنا أنت وأسرتك، أنا أصرُّ على هذا أيضاً، واسمح لي أن أشكرك على ما قدمته للخالة وعائلتها، أنا ممتنٌ لصنيعك هذا..

كانت لِلباقةِ ورد وكلامهِ الرصينِ أثرٌ في الجمع الذي بقي صامتاً لوهلةٍ قبل أن يقطعه رب الأسرة:

- أشكرك لك كرمك يا بنيّ، لكن أظنني سأنتقل بعائلتي إلى بيت أخي في الحيّ المقابل، وما استضافتُنا لخالتك إلا ردٌّ لبعض جميلها علينا، بارك الله فيك على مبادرتك..

التفت ورد إلى الخالة وأوحى إليها بنظرة من ينتظر جواباً قالت:

- أمهلني لحظةً يا بُنيَّ، لا بدَّ أن أستشير عمّك أولاً..

وأخرجت هاتفها وانزوت بعيداً لتتصل بزوجها وخرج الزوجان بطفليهما إلى غرفةٍ مجاورة، بينما التفت ورد ليتابع التأمل في البيت المحترق من الشرفة، التقت عيناه بالفتاة الواقفة خلفه فور التفاته، كانت حريصةً على أن تبدي في نظراتها إعجابها بموقفه وكلامه الذي ألقاه لتوّه، أما هو فكان ينظر إليها وكأنها تشفُّ عن كل ما حولها، عاملها وكأنها عقبةٌ بينه وبين الشرفة، فما كان منها إلا أن ولّت مبتعدةً تكتم غيظها ولا تفهم ما الذي يحاول هذا الرجل فعلَه، أهو يعاقبها أم أنه يتجاهلها لأنه لم تعد تعنيه؟

شيءٌ لا يعلمه ورد ولا يعلمه أحدٌ خارج أسرة جود هو أنها تعتزم فضَّ خِطبتها وقد أخبرت والدها بذلك ووافق على مضض، ذلك أنه أحسَّ أن لعودة ورد علاقةً بالأمر، إلا أن فسخ الخطبة لم يتمّ بعد، وما كانت جود مستعدّةً لتقول له شيئاً كهذا ثم يقابلها ببروده الذي يظهره منذ أن رآها هذا اليوم، كما أنها شعرت بأنه لا يُظهر شيئاً بل يتصرّف بتلقائيةٍ معها، وهذا ما لا تفهمه (أو لا تريد ذلك) ويوشك أن يُفقدها صوابها..

عادت الخالة بعد دقيقتين لتخبره أن زوجها قد وافق على طلبها، كما أنه قد أخبرها أن الهدنة لم تُفلح في خلق صلحٍ أو حتى تهدئة، لذا يجدر بنا التحرّك بسرعة..

كان أمام ورد عشر دقائق ليغادر بالخالة وابنيها إلى بيتهم قبل انتهاء وقف إطلاق النار، أعطى عنوانه لمضيفهم بعد أن

شكره مرّةً أخرى وأوصاه ألا يتردّد في الاتصال به أو القدوم إلى منزله في أيّ وقتٍ شاء، بدا لورد أن الرجل لن يفعل أيّاً من هذا، فقد كانت قسمات وجهه تفضحه بعد أن علم اسم عائلة ورد، لكنّه حيّاه بلباقةٍ وقدّر بادرته ورافقه إلى سيارته..

يبعد بيت وردٍ عن موقعه الحاليّ أقل من الكيلومترين بقليل، وصله خلال دقائق واصطفَّ خارجاً دون أن يدخل السيارة إلى "الكراج"، كأنه يعلن لمرافقيه أنه يعتزم المغادرة في وقتٍ قريب..

استقرّ ورد في غرفته تاركاً بقيّة المنزل لضيوفه، كان قد أوصد غرفة أخته كنوعٍ من الغيرة المفهومة التي خلقها وجود فتىً أحمقَ في بيته، خاصةً أن ورداً لا يطيقه كذلك، وأوصى الخالة بل رجاها أن تتصرف كأن البيت بيتها، ونأى بنفسه إلى غرفته لا يخرج منها إلا في القليل النادر، حتى أنه لم يكن يشارك ضيوفه طعامهم بحجّة أن له حِميةً غذائيةً خاصّةً - يُفضّل ألا يخوض في تفاصيلها - لذا يأكل منفرداً لأن الأكل بجوارهم يشعره بالحرج، وكانت هذه كذبةً تقبّلتها الخالة بسذاجةٍ ومراعاةٍ وتفهّم، ولا يدري ورد ما الذي أوحى له باعتزالهم ولكنه كان مرتاحاً لقراره وبقي ثابتاً عليه طوال أيامٍ ثلاثة..

وخلال تلك الفترة كانت جود ترتقب خروج الفتى من غرفته بفارغ الصبر، إلا أنه ما إن يخرج حتى يعاملها كما يعامل أمّها، فما كان منها إلا أن عاملته بالمثل كردّة فعلٍ لبلاهته المصطنعة، ولكنها ما فتئت أن فقدت صوابها عندما لن يكترث لتبدّل حالها ومعاملتها إياه بالمثل، فقرّرت أن تستوقفه عندما يخرج في المرة القادمة وتواجهه..

وخرج ظُهر اليوم الرابع إلى المخزن ليشغّل مولّد الكهرباء بعد أن انقطعت، فتبعته إلى هناك ووقفت عند باب المخزن عاقدةً حاجبيها تشبّك يديها في تحدٍّ وكبرياء، انتظرت منه أن يلاحظ وجودها ولكنه أهملها تماماً، قالت في غيظ:

- ورد، لماذا تفعل هذا معي؟

التفت نحوها دون أن يغيّر من تعابير وجهه شيئاً وقال:

- عذراً، أعدك ألا أفعله بعد الآن..

وغادر المخزن دون أن يزيد حرفاً واحداً، أحسّت أن في كلامه شيئاً في غير مكانه، فعلى عكس ما قاله بدت نظراته، وأثبت اليوم التالي صحّة توجّسها، لم يعد يعاملها كما يعامل أمها، بل أصبح يتجاهل وجودها تماماً، حتى أنه ربما تكلّم مع أخيها في ذلك اليوم أكثر مما تكلّم معها خلال الأيام الماضية مجتمعةً، وما لم تفهمه حقاً أنها تعرف تماماً أن هذا التصرف غريبٌ عنه، لقد كانت خطيبتَه ورفيقةَ طفولته من قبل، إنها تعرفه جيداً، تعرف تماماً أنه ما كان ليعاتبها على تركها إياه، لقد قال الأطباء أن فرصة استيقاظه بعد مرور الشهر السادس ضئيلةٌ جداً، لقد جاهدتُ والديَّ في سبيله، ولا أنكر أنني أذعنتُ لهما عن طيب خاطر في النهاية، فقد كانت رؤيته عذاباً لا أحتمله، ولا يعني ذلك أنني لم أتعذب عندما حدث معه ما حدث، لقد زرته عشرات المرّات وهو يرقد في فراشه، لعلَّ شقيقته أخبرته بذلك، إنها صديقتي وتعلم كلَّ شيء، كما أنها تقدّر موقفي وتدرك ما مررتُ به بعد تلك الحادثة المشؤومة، هذه ليست تصرفاته المعتادة، ربّما هو يعبث بي، أجل.. إنه يعبث معي، لا بدّ أن هذا تأثير أحد

أصدقائه عليه، لقد قالت شقيقته أنه يقضي كثيراً من الوقت مع خطيبها، إنه ذنب خطيبها إذاً، لا يمكن إلا أن يكون كذلك..

إلا أن جميع تخميناتها سقطت دفعةً واحدة صبيحةَ اليوم الخامس عندما استيقظت لتجده قد غادر إلى المشفى دون أن يخبر أحداً عدا والدتها التي كانت مستيقظةً وقتها، وبرّر لها مغادرته بأن أخته بحاجةٍ إليه وينبغي أن يكون بجوارها، ثم سلّمها مفتاح البيت وغادر..

ما لم تدركه جود خلال الأيام الخمسة التي قضتها مع ورد أنه لم يعد ذات الرجل بعد أن فقد والدته، كان بإمكانه أن يتعامل مع إصابته ومرضه بتقبّلٍ وسعة صدر، إلا أن مصابه في والدته كان أعظم من أن يغفره لنفسه، كان ذلك الشقيُّ يلوم نفسه منذ أن استيقظ، كانت السعادة بالنسبة له ترَفاً لا يستحقّه، وبهذه الأفكار تشبّعت روحه حتى اقتنع أنه كان من المفترض أن يموت يومها، وأنّ امتناع الموت عنه ما هو إلا سخريةٌ من عجزه، وما كان يورّقه حقّاً أن الأمور السيئة تحدث لمن حوله ولا يستطيع ردّها مهما بلغ من القوة..

3

إنـي عـذرتُ رحـيـلَـهـا إن ما عذرتُ فمن عذر؟
يا حاضـراً مـن بـعـدهـا يا غـائـبـاً مـهـمـا حـضـر
والقلب موصول الرضا يـكـفـيـه طيـفـك إن عـبـر
يومـاً وقـد يـبِـس القضـا والـدمـع فـي خـدّيـكِ مَـر
عمري خريفٌ قد مضى وأتـى الشـتـاء بـلا مطـر

كلية الطب: مجلة أكسجين، العدد الثامن والعشرون (لم يتم النشر)

- كاتب مجهول

4

على هذه الأرض كان لنا مع الموت كل يومٍ حكاية؛ وقد عاشت فينا المآسي قبل أن نعيشَها، وما كان بإمكان أحد أن يطلب منك أن تكون ما تريده؛ كن حياً فقط، وادّخر أحلامك لحياةٍ أخرى.. ذلك الوقت الذي هو آخر ما تبقى لديك للبقاء على قيد الحياة لا يصلح للأحلام، هو وقت مستهلكٌ في محاولةٍ بائسة..

وشهد الأسبوع الثاني ولادة القصف العشوائي بالصواريخ إثرَ احتلال قاعدةٍ جويةٍ على أطراف المدينة من قِبل أنصار النظام البائد الذين نهضوا متذرّعين بضياع الدولة والانفلات الأمنيّ، وكان أولُ ما فعله هؤلاء أن زادوا الوضعَ الأمنيَّ انفلاتاً، لتصبح بذلك الحرب ثلاثيةَ المحاور، موحّدةَ الوِجهة وإن تلاشت

الغاية في ضباب الوسيلة؛ فما كانت عقولٌ كهذه لتصل بنا إلا إلى الهاوية..

وظهر إذ ذاك نوعٌ جديدٌ من التصفية أعادنا مِئتَي عامٍ إلى الوراء في ليلة؛ إذ أظهر اختلاف لون البشرة بين أبناء القبيلتين فارقاً في ساحة المعركة، وكانت القوات المنتشرةُ في محيط المشفى من إحدى الطرفين تتمركز في فندقٍ مطلٍّ عليها، في حين تتمركز القوات المعادية لها في كلية التمريض التي تقع داخل حرم المشفى، لتبدأ بذلك التصفية على أساس اللون عند بوابة المشفى؛ كل من كان قد هرب من الموت إلى المكان الذي يُفترض أن الحياة تُصنع فيه وجد الموت ينتظره عند بوابته، واستغل الطرف الثالث فور ظهوره مسألةَ اللون؛ فقاموا بتصفية أي كائنٍ مهما كان لونه إذا قصد المشفى جريحاً، حدث هذا بعد أن تمكنوا من السيطرة على المدرسة الثانوية المقابلة للبوابة..

وعلى وقع هذه الكارثة غادر الطاقم الطبي المشفى إلى غير عودة؛ وتوقف إيفاد الضحايا إليه، وتُرك بقية المرضى لرحمة الله يسألونها بأنينهم، يقوم عليهم سبعة أشخاصٍ لا غير حاصرهم الموت في المشفى، أما عربات الإسعاف فلا تستطيع المغادرة، وإذا غادرت لا تستطيع العودة، والموت في الطابق الأول، والموت في الطابق الثاني، وفي المختبر، والموت في كلّ شِقٍّ وفي كل زاوية، حتى امتلأت ثلاجة الموتى وكُدّست الجثث على عتباتها..

خمسةُ أيامٍ مضت منذ أن غادرَنا ورد؛ كانت أخرُ مرةٍ تمكّنّا فيها من سماع صوته قبل يومَين؛ وبعد ذلك انقطعت شبكة الاتصالات كاملةً عن المدينة، وتلا ذلك انقطاع شبكات الإنترنت،

وانقطعت لانقطاعهما كل أشكال الصِلة بالعالم خارج هذه المدينة، كأنما تُركت المدينة الآثمة لتواجه قدَرها وحيدةً وتشهدَ نهايتها على يد أبنائها..

وغادر والدي المشفى صباح اليوم الثاني عشر من الحرب إلى المستشفى الميدانيّ الذي افتُتِح بديلاً مؤقتاً لبناء الموتى الذي نقيم فيه، لينقطع الاتصال به هو الآخر، وتبقى سرابُ وحيدةً معي في سكن الأطباء الأول، كان ذلك آخر عهدي بلقائها؛ فما كان من الممكن أن ألتقيَها وما في المبنى من أحد، إذا أحببتَ أحداً تحافظ على عهدك المقدّس معه، إلا أننا احتفظنا بموعدنا على الشرفة مساءً؛ ربما ليطمئنَّ كِلانا أن شقيق روحه لا يزال على قيد الحياة، اعتدتُ إعطاءها كتباً لتقتل بها الوقت؛ وحدَها القراءةُ تستطيع أن تجتثّك مما أنت فيه إلى عوالم لا متناهية، بحثت في مكتبتي عن كتبٍ تتحدث عن الأمل، أي كتابٍ عن التنمية؛ لم أجد كتاباً واحداً.. هل كنت متشائماً إلى تلك الدرجة؟ وقع بين يديّ "رسائل من أعماق الأرض"؛ كتابٌ مثل هذا كفيلٌ بالقضاء على الفتاة! ألقيته بعيداً في حقيبة السفر كأني أُخفي سلاح جريمة..

إن كنت قد تعلمتُ من الحرب شيئاً فهو أن الإنسان هو أكثر الكائنات تحضّراً ورُقيّاً فقط إذا كانت الآلات تعمل والكهرباء تُضيء والوقود والدواء متوفّران؛ خذ هذه الأشياء بعيداً وستبصر إنسان الكهف الأول يمشي مُترِب القدمين في الألفية الثالثة! تعلمتُ أن الموت صناعةٌ يُتقنها جُلُّ البشر؛ وتطفو على السطح عندما تضع البشر في مساحةٍ محدودةٍ مرسومةِ المعالم، ثم تنزع منهم الدينَ والنظامَ والسياسةَ والقوةَ العليا، وتتركهم بلا سلاحٍ أو ضغينةٍ مسبقة، وحتى بدون أي سببٍ ليكرهوا بعضهم، ستكون

أياماً وربما لحظاتٍ قبل أن يختلقوا أسباب الكراهية ولو كانت سخيفة، سيتكتّلون ويُنشئون الأحزاب؛ سيتجمّعون ويتقاتلون بدعوى واضحةٍ جداً مفادها: أنا أكرهك، هكذا وبدون أي سبب!

وبعد أن تمضي تلك اللحظات ويحصوا عدد القتلى؛ سيصوغون جاهلية الإنسان الأول في دينٍ أو سياسةٍ أو قوة، ويُلبسونه لباس الحضارة، ومع تلك السياسات ستولد العنصرية والكراهية والتبعية من جديد؛ تماماً بنفس الطريقة التي كُتب بها التاريخ وقامت بها الدول، إلا أن الأساس لا يزال واحداً: أنت تقاتل من أجل ما تحب أو ضد من تكره، ولأجله أنت تقتل..

5

مُتحدِّين معزوفةَ الرصاص خرج الناس يومَ الجمعة إلى السوق، ثمانيةَ عشر يوماً انقضت منذ بداية الحرب وما أخرجتهم إلا بطونهم! صاح الخبّاز: "عشرون رغيفاً للمواطن"، من المفترض أن تكفيَك هذه الكمية أسبوعاً كاملاً، وانتشر السماسرة حول المسجد يبيعون كل ما أصبح مفقوداً خلال الحرب بأضعاف سعره الأصلي، في هذا العالم هناك دائماً من يستثمر تعاستك.. اشتريتُ الكثير من الأغراض؛ كل الناس فعلوا ذلك، كانت المجاملات غائبةً في كلام الناس؛ لم نكن نتحدث إلا للضرورة، الآن هناك شخص ميتٌ في كل بيت، هناك شخصٌ يموت بينما نحن نتسوّق، كنا نسير بوجوهٍ عارية؛ لا مزيد من الأقنعة، فقد أثبتت الحرب لنا أن الإنسان على مر السنين لم يكن قادراً على

أن يصطلح مع أخيه الإنسان؛ وأشد من ذلك بؤساً: ما كان قادراً أن يصطلح مع نفسه..

خطب الإمام يومها عن أخطاء الصلاة، هممتُ أن أخلع حذائي وأضربه؛ تذكرت أننا نخلع الأحذية عند دخول المسجد، لطالما أحسستُ أننا نفعل ذلك لحكمةٍ ما! لقد تجلّى فكر الهزيمة في كلامه حتى لكأن تعريفَ الذل خطبته، هل نسي فجأةً الدنيا التي تحترق من حولنا والجثث العشرين التي سنصلي عليها بعد خطبته؟ كان المسجد يهتزُّ مع سقوط القذائف من حوله، ما الذي يمنع المسجد من السقوط علينا؟ كثيرٌ من أعداء الدين يصلُّون في هذا المسجد؛ كان الخطيب أوَّلَهم..

عدتُ أدراجي إلى المشفى؛ هناك سيارةٌ متفحّمةٌ عند البوابة، هل كانت موجودةً عندما خرجت؟! هل بإمكان أحدنا أن يعتاد منظراً كهذا ثم لاعتياده إياه أن يتجاهله؟! أعطيت سراباً معظمَ ما اشتريت، تنازلت عن الخبز الذي أحضرتُه مقابل الخبز الذي خبزَته؛ كانت قد أعدت طعام الغداء أيضاً، ناولتني إياهُ وطلبت مني أن أوصله لطبيبٍ مسنٍّ يسكن وحيداً في البناء المقابل، طلبت مني كذلك أن أتفقد منسوب المياه في الخزانات وأن أتخلص من النفايات، لا أدري لماذا كانت طلباتها ممتعة، ألا يُفترض بأمورٍ كهذه أن تزعجك؟! عدت إليها بعد أن انتهيتُ مما طلبَته؛ وجدتُها جالسةً على عتبة الباب، جلست بدوري على عتبة الباب المقابل، يتنهّد المبنى غباراً من سقفه مع كل موجةٍ انفجارية، يهتزّ زجاج النوافذ انسجاماً مع الانفجار، تنظر إليّ؛ أنظر إليها، أُغرِق النظر في الفتاة العشرينية ترتدي ثوب الصلاة، وتسبّح كلما اهتزّ المبنى، كم من الوقت انقضى منذ توقفت سراب عن معاملتي

كعدوٍ لها؟ نجلس الآن مقابل بعضنا كزوجين مسنَّين، لقد كبرنا عشرين عاماً في عشرين يوماً من الحرب، فكرت: كم أنا رجلٌ محظوظ! أعتقد أنها ستكون أمّاً عظيمة..

عادت تغطية الهاتف ضعيفةً في المساء، ومعها وقعت النكبة التي قصمت ظهرَ هذه الحكاية وكتبت فيها سِفْرَ مأساتها، اتصل بي والدي ليُخبرني أن ورد يرقد في المشفى منذ مساء الأمس حيث أُصيبت سيارته بقذيفةٍ أثناء عودته إلينا، وأن والدي قد عاد صباح اليوم مع عدد من الأطباء إلى المشفى ليجده هناك، وأخبرني أن أُحضّر أختَه جيداً لما توشك أن تقابله؛ فالذي يرقد هناك في المشفى لا يشبه أخاها الذي اعتادت أن تراه..

عشرون عاماً وأنا أعبثُ بمفردات هذه اللغة وبالكاد استطعت ترتيب كلماتي لتكون أقل قسوةً؛ لقد كنتُ سيئاً للغاية، الأمر برُمّته كذلك..

وضعَت يدها على فمها؛ شهقت؛ بدأت بالبكاء؛ غاب صوتها قليلاً ثم عاد يتأوّه؛ بدأ كلامها يصبح مبهماً، صرخت؛ كادت تفقد وعيها؛ عادت للبكاء بحرقة؛ وقفتُ هناك عاجزاً أشاهدها، أردتُ أن أربِت على كتفها؛ لا أدري لماذا أوقفتني يدي الأخرى..

أعطيتها معطفي الأبيض، لبست بدوري معطف والدي ليظن القناصة أننا أطباء، وانطلقنا إلى المشفى، مئتا مترٍ فقط تفصلان سكن الأطباء الأول عن المشفى، كانت تلك أطول مسافةٍ قطعتها في حياتي، بدأ الرصاص يدخل في التراب على جانبينا، هذه هي طريقة القنّاصة في إجبارك على الرجوع من حيث أتيت، تشبّثت سراب بكلتا يديها على ذراعي الأيمن وأحنت رأسها إلى الأمام؛ بدا المبنى من بعيدٍ وكأن رعب الكون قد نزل في جوفه، مرّت

دقائق عدةٌ قبل أن نصل، بقيَتْ تتشبّث بي حتى بعد أن دخلنا، عندها تبادلنا نظراتٍ فاحصةً كأن كل واحدٍ منا يبحث عن سلامة ذاته في سلامة الآخر، لم تتمالك دمعتها وعانقتني، كان نشيجها مخنوقاً حتى في أشدّ صرخاتها ألماً؛ طوّقتها بذراعيَّ وتركت رعبها يتلاشى؛ أطفأت دمعها على صدري، لم يكن كلامها مفهوماً، لم أكن أحاول أن أفهمه، لأول مرّةٍ أراها بتلك الحالة؛ لقد كانت هشّة للغاية..

قابلَنا والدي لدى وصولنا؛ تبادلتُ معه نظراتٍ منكسرة، قادَنا إلى حيث فقدت سرابُ وعيَها؛ إلى شخصٍ استعصى تمييزه على كِلَينا، لم أحاول إيقاظ الفتاة المسكينة، كدتُ أن أفقد اتّزاني أنا الآخر، بكيتُ لما رأيته؛ عيناهُ الرماديتان غائرتان في الصفيح وجسمه مهشّمٌ مليءٌ بجراحٍ بعضها لا يزال نازفاً، نصفه الأيمن محترقٌ؛ كتِفه أسود متفحّم؛ أحد أصابعه كان مفقوداً، توقفت عن النظر عند هذا الحد لما شعرت برأسي ثقيلةً جداً؛ جلستُ في مكاني وأسندت ظهري للجدار، ووضعت رأسي بين يديَّ وركبتيّ؛ وأغمضت..

السابع والعشرون من يناير؛ تنحّى الطب خارج حدود الممكن؛ وتوقفت أصوات العائدين من الموت إلى الأبد، هلاكٌ فقط.. صمتٌ مخيفٌ تحكيه الأشياء للأشياء؛ لا يوجد أسوأ من وقوع الكارثة إلا انتظار وقوعها؛ خاصةً إذا كنت موقناً بذلك، عندها سيتملّكُك الرعب مما لم يكن بعد؛ والحسرة على ما سيكون قبل أن يكون.. كنا أعجزَ من أن نُجابهَ الموت وجهاً لوجه؛ ومع ذلك قارعناه طوال عشرين يوماً، الموت.. ليس بإمكانك أن تتجاهله إلى الأبد؛ ما كان هو ليتجاهلك..

غادرت سيارة الإسعاف تحمل الشقيقين إلى العاصمة، ما من طبيبٍ ليرافقهما، لا أدري كم من الأمل تتطلب الحياة لتستمر؛ لعلّها تحتاج إلى معجزة.. سيقابلها والدهما في منتصف الطريق، ودّعتها بصمت؛ فقد أفقدتنا المصيبة القدرة على الكلام، شعرت أن كل كلمةٍ سأقولها إهانة.. دسَسْتُ في جيبها كلماتٍ كنت قد كتبتها لأجل يومنا الموعود، لقد مات ذلك الحلم قبل أيام على أي حال..

إلى أن تعود إلى شُرفتها سأبقى أنتظرها.. وحتى ذلك اليوم سيبقى طيفُها أسيرَ الصمت في الشُرفة، وشيئاً فشيئاً أرى ظلّي ينحسر مع بقية الظلال خلف السُّكون؛ ما زال كما عرفته يومَ الْتصق بي: مظلماً وثقيلاً.. ويختفي مع ساعة الغروب الأخيرة، فوق إدراكه تغفو الحياة؛ ودونَها مسيرة عمرٍ في بلاط أميرة، ويبقى طيفها هناك وحيداً؛ أسيرَ الليل والشرفة، والسر نائمٌ في عينيها لمن أراد أن يعرفه؛ إلا أن الموتى لا يُفشون الأسرار...

الفصل السادس

ما بين حبّكِ والقدر

1

تتهتّك الكلمات ويغيب الصدى عميقاً في صمت المدينة الآثمة؛ تتآكل الأصوات كلما لاح طيفها ثم تستيقظ في الجزء الأشد خراباً من الذاكرة، إنه المكان الوحيد المتبقي لها لتعيش فيه، لا أحد يسكن دفاتري إلّاها؛ لا أحد ليردم الجزء المنكوب من القلب، وحدها سراب تفعل ذلك...

تجمّع الموتى في السابع من أيلول ليقرؤوا فصل السراب الأخير، هكذا سيعرف كل واحدٍ منهم كيف مات، كم هي رقيقةٌ تلك القشرة التي تفصل جثث الموتى عن أحذية المارّة؛ أو ربما كانت تفصل أحذية الموتى عن جثث المارّة، لم يعد هناك فرق، كلٌّ يسير في حُكم ساعته؛ وساعته تتعثّر برصاصةٍ طائشة..

اثنتَي عشرة ساعةً على قارعة الطريق وقف والد سراب ينتظر سيارة الإسعاف التي تُقِلُّ ولَديه، لم تصل تلك السيارة أبداً، وهو إذ ذاك مرّت من أمامه قوةٌ عسكريةٌ قِوامها أربعمئة مدرّعة تحمل سلاحاً تفاوت بين ثقيلٍ وأثقل وِجهتها الجنوب، كانت مهمتها فضَّ الاقتتال عن طريق ترجيح كفة أحد الأطراف على

حساب الأطراف الأخرى، أهذا حقاً ما كان ينقص المدينة الآثمة؟ مزيدٌ من القوة؟! وأخذت الأفكار تتلقّفه بين سيئٍ وأسوأ، لقد قالت له ابنته أن وضع أخيها حرِجٌ للغاية، لا تفاصيل عن حالته؛ تُرى هل كان بوسع قلبه ذي الستين عاماً أن يحتمل التفاصيل؟! كان إحساسه بالعجز أمام نكبته في ابنه يتضاعف كلما أدرك ألا شيء لديه ليُقدّمه فداءً لحياة ابنه سوى الانتظار، مرةً أخرى...

السادسةُ مساءً بتوقيت الحياة كما نعرفها؛ توقفت سيارة الإسعاف على بُعد أميالٍ من الجنوب، نزل السائق من السيارة تحت تهديد السلاح، لم يكن لدى سراب أدنى فكرةٍ عن سبب التوقف؛ ربما هي بوابةٌ أمنيةٌ أخرى، قام أحد الرجال الملثّمين بفتح الباب وأمرَها بالنزول، لم تكترث له، بدا لها من صورته أنه من المرتزقة، صرخ بها فأخرجت أشدّ نظراتها احتقاراً ورمقته بها، لم يتأثر كثيراً؛ يبدو أن أمثاله قد اعتادوا نظراتٍ كهذه، صرخ بها مرةً أخرى فقامت إليه وأغلقت باب السيارة في وجهه، وفقد إذ ذاك صوابه ففتح الباب وقام بجرّها من يدها وألقاها على الأرض، وهمّ بإخراج أخيها من سريره، كانت تلك اللحظة هي ما حوّلت فتاةً رقيقةً في ربيع عمرها إلى وحشٍ كاسر؛ فقامت إليه وهاجمته، اشتبكا بالأيدي، ضربها بكعب بندقيته فما كان ذلك ليوقفها، جرحته بأظافرها؛ عضّته؛ استخدمت معه جميع أسلحة الأنثى الضعيفة، إلا أنها مجتمعةً ما كانت لتعنيَ شيئاً في حُكم بندقيته، ثلاث رصاصاتٍ في قدمها من المدى القريب جداً أوقفت حركة الفتاة؛ سحبها من القدم التي أفرغ فيها جُبنه لتوّه وألقاها على حافّة الطريق، ثم سحب أخاها ورماه

بجانبها، لم يكن منظره الذي تقشعرّ له الأبدان ليحرك شعرةً في جسده؛ وركب السيارة مع من معه وولّى..

كانت الإمدادات الطبية قد تم قطعها بعد حصار المشفى، ما أهلك المقاتلين الذين ما كانت إصاباتهم قاتلة، وعلى إثر ذلك قاموا بسرقة الصيدليات ومراكز المعدات الطبية، وتعدَّوا ذلك إلى سرقة سيارات الإسعاف التي تغادر المدينة أياً كانت الحالةُ التي تُقِلُّها..

بقي سائق سيارة الإسعاف واقفاً يقلّب النظر في الفتاة تُمتَهن كرامتها ولم يحرّك ساكناً، يظهر الناس عادةً على حقيقتهم إذا بدأوا رهاناً على أرواحهم؛ وغالباً ما تبدو تلك الحقيقة مقزّزة.. حاول السائق بعد ذهاب الملثّمين ربطَ جرح الفتاة؛ ولكنها رفضت ذلك وحاولت أن تسعف نفسها بنفسها؛ فما كان منه على خزيه إلا أن أوقف إحدى السيارات العابرة وحمل فيها الشقيقين في الطريق إلى العاصمة..

وفي الطريق إليها عبرت السيارة من أمام والدهما فلم يوقفها ولم تتوقف هي بدورها، فقد كان ينتظر سيارة إسعافٍ لا شيء آخر، وما كان ليخطر بباله أن ابنيه قد تجاوزاه دون أن يدرك ذلك..

الثامنة مساءً بتوقيت الحياة كما لم نعد نعرفها؛ يتعثّر التوقيت وتتوقف الحياة.. الكثير من الدماء على أرضية السيارة، بدأت سراب تفقد وعيها، حاولت أن تنظر؛ تصبح الرؤية أكثر ضبابيةً مع كل ثانية، بدأت الأفكار تتناقلها بعيداً عما هي فيه، كيف كانت ستبدو باللون الأبيض؟ فكرت في ليلة زفافها وفي اسم ابنتها الأولى، كانت تريدها فتاةً لتسمّيَها كما سمّى ذلك الفتى أمَّها عندما

قابلته ذات خريف، فكرت فيه كثيراً وقد تركَته خلفها؛ قالت لنفسها: " لقد أحبّني ذلك الفتى بصدق؛ ربما أكثر مما أحببتُه، لن أسامح نفسي إذا تركته وحيداً... "

وفي نظرةٍ هي الأخيرةُ لها في هذه الحياة وضعت رأسها على رأس أخيها؛ ابتسمت؛ بكت؛ قبّلت رأسه، ثم وضعت يدها في جيبها وشدّت بآخر ما لديها من قوة على تلك الورقة التي دسّها هناك حبيبها، وفاضت منها الروح على أعتاب العاصمة، وتفلّتت من كفر هذا العالم البائس، وكما يختفي السراب عادةً؛ اختفت...

2

لم تكن سراب هناك عندما استعادَ وعيه، لم يكن والده هناك أيضاً، كان بوسعه أن يسمع قطرات الماء تضرب سقف السيارة، بدا له أنه قد وصل إلى حقيقة الأشياء وليس عليه أن يتابع أبعد من ذلك، شعر بهم يحملونه خارج السيارة ويضعونه على سرير، شعر بالمطر يرتطم بوجهه، سمع أحدهم يقول له: "أرجوك لا تمت أنت أيضاً"

أنت أيضاً؟! من سبقه؟ ليس مرّةً أخرى..

نظر إلى الدنيا بما لم يتعطّل من حواسّه، شعر بأنها لا تستحق أن يراجع فيها نفسه، أرخى روحه للمطر يذيبها، شيئاً فشيئاً تتخفّف مما أثقلها؛ شيئاً فشيئاً تسقط نحو السماء...

وعندها فقط؛ رآهم..

الشعب الذي نادى يوماً بالحرية يطرحها لأجل ما يُشبهها؛ أو ما شبّهوه له به، وكأن كل معركةٍ ربحناها لم تكن ذات قيمةٍ عندما

خسرنا معركتنا مع القدر، كان الوداع قد بدأ يستيقظ في حنايا العالم من حوله، مرّت لحظةٌ رآه فيها قادماً، تقاطعت نظراتهما كصديقَين قديمَين أخطأا تعريف بعضهما فأخطأ تعريفَهما الزمن، تذكّر آخر عهده به والحياةَ التي نسي أن يسلبها كاملةً يومَها، وعلى حين موتٍ وحياةٍ وشيءٍ ما بينهما استيقظ الوداع في خلاياه المحترقة وفي تلك التي أوشكت قبل أن يستيقظ أخيراً فيه...

3

ووضعت الحرب أوزارها لدى وصول القوة العسكرية إلى الجنوب، وتم سحب الاعتماد الدولي من المطار على خلفية الأمن المفقود في المنطقة، وانسحب من انسحب، واحتل من احتل، وانتصر لا أحد؛ فالانتصار والهزيمة هي معانٍ لا وزنَ لها إذا كان المتقاتلون شعباً واحداً في الأساس...

وتقاسم الأعراب فنجانَ القهوة المسمومَ على قبر الشهيدَين؛ كانت سوداءَ حتى النهاية قبل أن تضيع مرارتها بين القبائل، وطأطأ الوطن رأسَه حائراً في العار الذي ألحقه به أبناؤه؛ أيُمسكه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب..

ثم ماذا؟ إنه أنت كما كنت دائماً، وهذا وطنك؛ كأن لم يكن أبداً، تعيش فيه ولا تعيش من أجله، واقتسموه فمنهم أنصارٌ لرجلٍ ميت، ومنهم أنصارٌ لفكرة قتلها أصحابها، وبينهما ضائعاً بقي الوطن...

4

قلـبٌ تيتّم فـي الـشَّـتـا ت وتاه في دنيا البشر
عبَثاً يواري نـبضُـه ما ليس يُخطئه البصر
لو كنتُ أعلم ضعفَه لَبنَيتُ قلباً من حجر
ألفيتُه متصبّراً لمّا تلاشى واندثر
ما بين أخطاء السنيـ ـن وبين حبّكِ والقدر

5

كان يكفيه جرعةٌ أخرى من هواها ليختنق؛ ومع أنه كان يقف على حدود التداعي إلا أنه بقي يطالب بحقّه في تلك الجرعة، أكان حقاً مشتاقاً ليلقى حتفه أم أنها سلبته عقله؟!

وحين جمعهما القدر لملم أيام عمره الضائعةَ في كتاب تشريحٍ وأهداه لها، ووضع في حاشيته بعضاً من رئته التي جاورت قلبه عشرين عاماً لتعلم كم كان التنفس صعباً بدونها، وأودع في صدر الكتاب حروفه التي كلما أراد أن يكتب بها غير اسمها خذلته، وعلى طاولة المقهى وضع لها فنجان قهوتها تحت غيمةٍ ماطرة، مع أنه كان يعلم يقيناً أنها لن تظهر، وما كان يريدها أن تظهر، ولكن لضرورة التخلص منها طقوسٌ لا بد منها ليخلعها أخيراً من ذاكرته البالية، "لم تكن تستحقّها" قال لنفسه، "لم يكن يستحقّها أحد.."

وباسم الأسود في عينيها راح يكتب سِفْر مأساته، دون أن تتسارع نبضاته وتخرج فوضويةً لا لشيءٍ سوى أنها إليه قد

نظرت في لحظة اشتباكٍ بصريٍّ بريءٍ لم يعد يعرف بعده ما هي البراءة؛ وتحت أي مسمّيات الذنب تندرج، أبإمكان طقسٍ بصريٍّ عابرٍ أن يبعثرك سبعين ألف قطعة؟ عيناها تفعل ذلك ...

وشيئاً فشيئاً مع زخّات المطر ابتدأ مراسم دفنها، وراح يطردها من ذاكرته قطعةً قطعة، ومع أنه كان عازماً بما لا يقبل الشك على المُضيّ قدُماً إلا أن التخلص منها دفعةً واحدة لم يكن ممكناً، ليس بعد أن تشربت روحه بروحها تماماً كما هي الأماكن والطرقات من حوله تتشرَّب المطر في تلك اللحظة..

ونزلت إذ ذاك قطرةٌ ضلّلتها طرق السماء العاصفة في فنجانها على الطرف الآخر من الطاولة؛ وأثارت ارتباكاً لحظياً في الماء الأسود؛ فظهرت غمّازة خدّها فيه لحظةً ثم اختفت، لطالما أحبَّ أن يحتسيَ معها قهوته تحت مظلةٍ واحدة، أن يرتشف الأسود في عينيها مع مرارة قهوته، عصِيَّتان هي والقهوة على التذوّق؛ عصِيَّتان هي والقهوة على النسيان، لم يجد مبرراً لتلك الخيانة، لماذا يقف صديقاه: المطر والقهوة معها ضده؟! ألم تكن صداقة عشرين عاماً كافيةً ليتخذا جانبك؟ أم أن جانبك الخرِبَ لا يعني لهما شيئاً إن لم تكن سيدة السراب فيه ترمّمك بغيابها وتبارك عليك دمارك؟

لَكَم يشتاق هو الآن لأن يغمض عينيه ولا يمرَّ في خاطره أحد، أن يقابل حقيقتَه السوداءَ التي يُدركها كل مخلوقٍ حين يُعطّل بصره، ألا تظهر في داخله فجأةً وتبعثر له مفرداتِه وكيانَه وتقلب عليه لغته، لكم هو مشتاقٌ أن يستعيد سيطرته على نفسه مرةً أخرى، أن يكتب قصيدة غزلٍ عنيفةً دون أن يحرّك عينيه عن سقف غرفته، وأن ينام بعدها بهدوءِ طفل قد أنهى بُكاءه لتوّه..

خرج من المقهى دون أن يأخذ مظلته، للمرة الأولى منذ أدمن عينيها لم يُكمل قهوته، خرج إلى الضوضاء الكاذبة وتخاريف كلية الطب وجداول الامتحانات المؤجّلة، خرج إلى مجموعةٍ من الحمقى يظنون أن الحياة ملأى بالفرص الثانية، لا شيء يعنيك في الدنيا كما كانت هي ولا شيء يعنيك بعدها، سِر غريباً تحت المطر فالمطر صديق الغرباء، سر وحيداً فالمرأة التي امتلكت قلبك منذ عامين هي الآن امرأةٌ ميتة؛ امرأةٌ ميتة...

كاد المطر أن يذوب فيه، عانقَه كصديقٍ قديم وأخفى دموعه بين زخّاته، ثم وضع رسالته في صندوق الرسائل التي لن تصل أبداً، وإلى الحياة المنتظرة؛ إلى الحياة التي ليس فيها مثلها أرسل رسالته...

6

وفي منفايَ ألْتقيتك؛ غريبَين بنفس الطريقة، وفي منفاكِ افترقنا؛ غريبَين كلٌّ على طريقته..

كان على الحيّز الفاصل بين الموت والحياة أن يكون أوسع قليلاً لنعتاد اجترار الألم، كان عليه أن يكون أضيق علينا من أنفسنا لنعلم كم هي ضائقةٌ بذاتها العبارة، وأن كلماتنا المخنوقةَ في حناجرنا أعجز من أن تُرسل صداها في العدم ثم تعودَ بالخيبةِ التي غادرت بها؛ علّنا ندرك حينها كم كنّا طاعنَين في الغربة، حتى إذا ما بلغ البعدُ تمامَه عادت لتغيّر شيئاً ما؛ وتغيّرك وحدك...

كان المطر خارج المقهى قد أنهى بكاءه ما أجبر عينيه أن تُنهيَا خاصّتهما أيضاً؛ وبدأت الأجواء تستعيد رائحة البارود

المعتادة، ثمّة جثّةٌ على قارعة الطريق تشبه التي كانت هناك صباحاً، قلّب النظر فيها محدّثاً نفسه: "ما أشبه اليوم باليوم.." وقرأ على الجثتين فاتحةً واحدة، ثم ودّعها وعاد أدراجه إلى محراب ذاكرته...

وفي الطريق بعيداً عنها تعثّر بها مرّةً أخرى، تذكّر الابتسامة الجافّة على جثّةٍ يعرفها جيداً، تُرى لمن كانت تبتسم؟ لمن أرْداها قتيلةً أم للحياة التي وقف عائقاً في الوصول إليها؟ وكما اعتادت أن تفعل به ذاكرته دائماً فعلتها مرةً أخرى وبعثت فيه شعوراً قديماً باليُتم والمرارة، وقذفته عامين إلى الوراء؛ واقفاً في المشرحة مع والد الشقيقين الذي خذلته سنواته الستّون في أن يقول للطبيب كلمةً تُفيد بأن أشباه الأجساد التي أمامه تعود لأشباه الأفئدة التي ينبض الأب من خلالها: ابنه وابنته.. وما دون الأب والطبيب والدنيا التي ما فتِئت تضيق من يومها - غلبته دمعةٌ حارقةٌ كان قد غالبَها أياماً قبل أن تصرعه أمامَ جثمانِها البارِدِ كالشتاء الذي أحبّته، لم يعد يدري أيُّ صور الفاجعة أشد: وجوده حيّاً دونها أم وجودها ميْتةً أمامه.. أكانت الحياة رثّةً دائماً كما تبدو هي الآن؟ أم أنها تعلّمت لتوّها كيف تشِفَّ عن الموت الرابض بين الجفنَين الذابلَين؟

سقط والدهما في أرضه مغشياً عليه؛ لم يكن الطبيب ينتظر تأكيداً أبلغ من هذا، أعطاه شهادة الوفاة وتركه يستسلم لحتميّة الفكرة؛ لقد أصبح الأمر مقضياً..

ماذا لو كان أفضل أيام حياتك قد مرَّ بالفعل؟ ماذا لو علمتَ أن حياتك الخاصة كانت لتكون أجمل بكثير لو أنك أنت لم تكن فيها؟ أكنتَ لتنكر ما أنت عليه لأجل ما لن تكونه أبداً؟

كان لا بُدّ لروحها أن ترتجف دهراً تحت غطاء عينيه ليدرك أن ما علق بنفسه منها لا يمكن لزخّة دمعٍ عابرةٍ أن تنزعه، فأمّا الدمع فيذهب جُفاء؛ وأما ما أدمعَ العينَ فيمكث في القلب، ليطفو على سطح البلايا كلما فاض الحنين؛ ذاتَ شتاءٍ أو ذاتَ شقاء؛ لا يُخطئ القلب الحائرُ قِبلته..

عاد إلى أوراقه وفنجان القهوة الذي ما أكمله، شيءٌ ما في الماء الأسود ألهمه أن يبعث سواد عينيها إلى رحِم الورقة، ترك ذاكرته تغرق في دَوَاته فأجاءها المخاض إلى صدر الصفحة؛ وشهد ولادتها من الحبر؛ أنثى في حدود ورقة..

وبكلماتٍ مُطفأةٍ كتبها:

"كانت أجملَ من أن تنظر إليك؛ إلا أنها نظرتْ...".

تتمة

لقد مضى الكثير على أحداث هذه الحكاية، عامان تحديداً؛ وطُويت صفَحاتٌ كثيرةٌ على تلك الأرض؛ مرةً أعدنا كرامتنا وكثيراً ما أضعناها.. إلا أن العجز وحدَه بقي ثابتاً في معادلة القدر؛ يلقي بسيفه ثقيلاً على فؤاد الحقيقة..

إنني الآن في الثانية والعشرين من عمري؛ ليس فعلياً.. أظن أنني توقفتُ عن النمو بعد العشرين، يحدُث أمرٌ كهذا عندما تعلم ما يفعله الكبار في وطنك، غيرَ أن الأديب في داخلي هرِم وهو يكتب؛ أراه الآن ولا أكاد أُبصر فيه من صِباه ذكرى، يكبر المغترب فينا سبع سنواتٍ في السنة، الآن أُقارب والدي في العمر، ربما يتطلب الأمر حرباً أخرى لأسبقه! لقد غادر والدي بعد انتهاء الحرب بأشهر..

أحياناً أقابل والد الشقيقين في المسجد؛ أتأمّله أو أتأمّل فيه ابنيه؛ لقد فقد هذا الرجل زوجته وابنيه في معاركَ لم تكن معاركه، نتمشّى معاً، نتجنّب الالتفات إلى الماضي ما استطعنا ولكن الأمر لا يُفلح أبداً؛ ينتهي لقاؤنا دائماً ببكائه.. أُفرغ حِصتي من الدموع معه أحياناً، البكّاؤون يستأنسون ببعضهم، تولّدت بيننا على مر الأيام أخوةٌ في الدمع، ولم يتوقف هذا عن الحدوث طوال السنتين الماضيتين، أفتقد فيه الرجلَ الذي اعتاد أن يهدّدني بالقتل، تُرى كم مرةً علينا أن نتألم قبل أن نعتاد الألم؟ كم مرةً علينا أن نتألم قبل أن نتعلم الابتعاد عما يؤلمنا؟

لا أدري لماذا الآن؛ وبرغم البؤس الذي عِشْتُه وأعيشه؛ لا أزال أتذكر النارَ يتأجَّج لهيبها في سماء المدينة الآثمة، وفي النار أتذكرُ دموعَها؛ دموعَ ساحرةِ الزمان، عند أهدابها تغفو الأنوثة؛ وفي عينيها تعريفٌ حزينٌ للجمال، لفرحتها التي ما وصلت لها يوماً، أَلِلذاكرة حدٌّ يبدأ عنده القلب بالنسيان؟ أم أنك ستدرك في آخر أيامك كم كانت خيبةً حياتك؟

أحياناً أنأى بنفسي إلى الحد الذي تتلاشى عنده الحقيقة ويبدأ دونَها الخيال، ليس الأمر أن الحقيقةَ ثقيلة؛ لربما هي أثقل؛ إنما يحتاج الواحد منا أن يتواجد بين مكانَين ليعلمَ أين يفرُّ إذا فقد عقله في أحدهما..

أحياناً أتوقف في منتصف كلمةٍ أقولها؛ أنتظر منها أن تقاطعني؛ أنتظر منها أن تُكملَ الكلمة، لا يكمل الكلام أحد.. أحياناً أتوقف في منتصف الطريق، أتلفّتُ ورائي؛ ستظهر بعد قليلٍ وتنظر إليَّ ثم تسدد نظراتها إلى الأرض، فارغاً يبقى الطريق؛ فارغاً يبقى.. لا يظهر في الطريق أحد.. أحياناً تحاول أن تأخذ مكانكِ فتاةٌ ما؛ تبتسم لي كلما رأتني، تسلّم عليّ، أحياناً تفعل أكثر من ذلك.. وتكثر في بلاط الحب الأسئلة ويبقى الجواب دائماً: أنتِ..

لم تصنع مني الغربة رجلاً؛ كلا.. لقد سلبت مني أشياءً جميلةً جمعتُها طوال عشرين عاماً وما أبْقت مني سوى ذلك الرجل، يصلح للموت أكثر مما يصلح للحياة.. ما الذي أفعله أنا في هذه المدينة؟ هل بقي الكثير لي فيها لأخسره؟ أحياناً أرى في نفسي ذلك الرجل الذي حين أحسَّ باقتراب ساعته غادر أصدقاءه ليموت وحيداً.. كنت قد قررتُ مغادرتها إلى الأبد عندما بدأتُ الكتابة،

بشِقَّيها بدأتْ الحكاية في أيلول لتعود إليه بعد ثلاث سنواتٍ فاقدةً شِقَّها الأجمل؛ نصفَها الذي اعتادت لأجله بسمة الحياة أن تكمل، حتى بعد أن بلغت أجَلَها تتابع الشمس لأجْلِها إشراقها على سكّان المدينة الآثمة يوماً بعد يوم، وحدي أعرف أنه لا طريقَ ستطلع عليه تلك الشمس إلا وسأمشي فيه وحيداً..

وكان آخر عهدي بالسراب كلماتٌ كتبتها لها بقيت هناك في معطفي الذي دفنت به، لم أشأ لكلامٍ كان لها أن يعيش من بعدها؛ وعلى الورقة دماءٌ قاربت السواد بشكل غريب، وعلى ظهرها قد كتبت شيئاً ما، كانت بعض الحروف قد ضاعت بالفعل بين الخلايا الميّتة، بعض الذكريات فعلت ذلك أيضاً..

في السابع من أيلول زرتُ قبر الشقيقين لآخر مرّة، قُتلا معاً ومعاً غابا في التراب، وما زادهما الغيابُ إلا حضوراً، تبادلنا عهودنا وأحلامنا كما اعتدنا أن نفعل، وودّعت روحَيهما مع غيبة الشمس الأخيرة، إلى ذلك المكان الذي تنتهي إليه الكائنات المجنّحة، إلى حيث تصعد الأفكار الجميلة عادةً، إلى حيث ينتظرانني وأنتظرهما على موعدٍ في الأزل، إلى أن نلتقي يوماً على أرض السراب..

كان على المدينة الآثمة أن تترك أثرها على آخر الأحياء في هذه الحكاية، ففعلت وأهدتني شظاياها السبع؛ سطحيةً بما يكفي لتبقيكَ حياً، عميقةً بما يكفي لتضع علامتها عليك، شيءٌ ما في الجلد المشوّه يخبركَ أن ما لم يقتلكَ قد قتل غيرك، شيء ما فيه يخبرك أن ما لم يُقتل منك قد قُتل فيك، وكلما طالعتُها رأيتُ فيها فتاةً أعرفها، كأنني مسكونٌ بسِوايّ.. تُرسل من درك الألم الأسفل

قوةً تدفعني بعيداً عنها خطوةً إثرَ خطوةٍ إلى سياج الحياة الأبعد، حيثُ الأمل يتشبّثُ بتلابيب الحب ويسلّم راضياً لحكمة القدر..

وما بين حبكِ والقدر؛ كان على الخريف أن يتابع قدومه في كل عام؛ باحثاً في أزقّة المدينة الآثمة عن رائحة الخبز والمطر، عن ذلك الجزء من اللحظة الذي نفقده في كل لحظة، حتى إذا ما مرَّ بجانب الموتى وجدها هناك؛ تروي لهم جزء الحكاية المحذوف، فيستمع إليها ثم يبكيها ويرحل...

أما حياتي؛ فمع أنها مضت حتى هذه اللحظة حقيقيةً جداً إلا أنها ما زالت تبدو كالحلم..

هذا أنا.. وحسبي من الحزن شيءٌ لم أستطع أن أكتبه...

** * **

تمت في السابع من أيلول - 2015

الجزء المحذوف من كل ما أكتبه إليها تقرأه دون أن أكتبه..
الجزء الموجود في كل ما لم أكتبه بعد، تقرأه قبل أن أكتبه.. جزء الشتاء الذي يبكي ليصنع المطر؛ جزء السماء الذي يختفي ليجلي القمر؛ الجزء الذي هو منك لا يكون إلا بها؛ الجزء الذي هو منها لا يكون إلا بك. الأجزاء التي هي منكما لا تكون إلا بكما؛ الجزء الذي ينقص كل ما هو جميل ليكون أجمل.
هذا هو الحب.

آلاف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان
e-kutub.com